فيوليت وينسبير

هَل تخطئ الأنامِل؟

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية
THE PASSIONATE SINNER



روايات عبير

منذ صدور هذه الروايات في العالم العربي، بعدما طالعها القراء عبر جهات الأرض الأربع، ونحن نتلقى التهاني والتشجيع ورسائل الشذى الطيبة من كل مكان.

لأن هذه الروايات بطاقات سفر ذهاباً فقط الى عالم النقاء العاطفي وصفاء الأحلام، ولأنها لمسة نسيم بالغة الرقة، ورفيقة المطالعة المفضلة لدى الملايين في العالم كله.

اربطوا حزام الأمان فالرحلة الى عالم الحب تبدأ في الصفحة التالية!



١ ـ لو طلبت عيني...

بولاو ـ إنداه جزيرة قابعة في بحر استوائي، يقطنها رجل يعيش حياته في ظلام... ومن جديد ها هي ذي التي ناولته محلول غسل العيون، بدون أن تدري أنّ الممرضة الأخرى سكبت شيئاً سوف يحدث آلاماً على الفور... يتلوها ضياع بصره.

كان قد أمضى ساعات في غرفة الجراحة... وبعد الانتهاء من كل عملية طويلة دقيقة، يغسل عينيه المجهدتين بسائل ملطّف لا ضرر منه... وقامت الممرضة الأخرى بمزجه،وسلّمت حنجور العين الى مساعدتها، وعادت توجّه اهتمامها الى فحص الأدوات التي استخدمها الجرّاح، بينما مال هو برأسه للوراء، وسكب المحلول في عينيه، اليسرى أولاً، ثم اليمنى.

وبعد لحظة أطلق صرخة رهيبة مختنقة...

وبذلوا كل ما في وسعهم لانقاذ بصره... كان الحادث كلّه فاجعة رهيبة لبول فان سيتان، وللفتاة التي استبدّ بها الهلع بعد أن أعطته حنجور العين.

وفي غمرة الذعر واللوم اللذين تبعا ما حدث، وجدت المساعدة الصغيرة نفسها في موقف المتهمة... وذكرت الممرضة الأخرى في التحقيق أنّ مساعدتها هي المخطئة تماماً، فمهمّة الفتاة التأكّد من عدم وقوع أي خلط بين الزجاجات في غرفة الجراحة... وهو سكب المحلول الخطأ بكل براءة على أنه محلول غسل العيون... وبدأ الهمس... فالكل ـ عدا بول فان سيتان ـ يعرف أنّ الفتاة غارقة في حبه وهو لا يشعر حتى بوجودها.

أما الممرضة الأخرى فكان لها سحرها الخاص، والأطباء يبدون تعاطفاً معها، وأخذ اللوم ينهال كأنه هدير القدر المشؤوم على طالبة التمريض الهادئة المتواضعة، وسارعوا الى فصلها. وكان عليها أن تجد عملاً أقلّ ملاءمة لها... ولكن أي شيء أصبح يهمّها بعد ذلك؟

عدّة شهور مضت عندما علمت بمحض الصدفة، أنّ الجراح الهولندي الذي أجرى بمبضعه معجزات على وجوه وأجسام مرضاه المحطمة، يعيش بعيداً في المنطقة الاستوائية، في جزيرة يمتلكها رجل ثري أصيب ابنه بحروق خطيرة في حادث لزورق سباق، ولكنه استعاد صحته وانسانيته بفضل براعة الرجل الذي فقد الآن بصره الثمين... إنّ هاتين اليدين الرائعتين وذلك البصر الحادّ لن يتوّحدا مرّة أخرى لشفاء أي شخص... كانتا واثقتين وموهوبتين كأنهما يدا فنان عظيم يرسم بالتفصيل على الفولاذ أو الخشب. يتعامل بول مع اللحم والعظام لينحت ما كان يبدو مستحيلاً أن يعود في شكل وجه، ويعيد الأطراف المحطمة الى حالتها المفيدة.

ولكنّه لم يستطع إعادة بصره المفقود، أو مساعدة مرضاه، بل قرّر بعد شهور من النقاهة في إحدى الجزر الاستوائية، أن يكتب للآخرين في ميدان الجراحة كتاباً عن فن جراحة ترميم الأجسام، لكنه بحاجة الى من يساعده... سكرتيرة تفهم المصطلحات الطبية، وتكون قادرة على هجاء الكلمات الغامضة بطريقة صحيحة.

الفتاة التي أوصوا بها، والتي أصبحت تعتقد أنها هي التي حطمته، تريد تلك الوظيفة أكثر مما أرادت أي شيء في حياتها من قبل... فيما عدا أن ترى بول فان سيتان وقد استعاد بصره... وهي أمنية كانت تبدو أبعد منالاً من النجوم في السماء...

وكان الشيء العجيب، هو أن فرصة حصولها على الوظيفة رائعة، إذ أنّ اسمها لن يدق في ذهن الجراح ناقوس الذكريات المؤلمة.

عندما كانت طفلة صغيرة، مات أبوها، وبعد بضعة شهور تزوجت أمها من حبيبها القديم، وأرادت أن تستخدم ابنتها اسمه، وقد فعلت الفتاة ذلك لترضي أمها، أما الآن فقد جاءتها تلك الفرصة لكي تذهب وتعمل عند بول. فشرعت في إعادة اسمها الأصلي على بطاقات عملها. وكل الوثائق الأخرى التي ستحتاج إليها للذهاب والعمل في الخارج، وعندما بعثت رسالة طلب الوظيفة مع تفاصيل قدراتها للعمل كسكرتيرة الى جزيرة بولاو-إنداه البعيدة وقّعته باسم لن يعرفه بول، أو يربط بينه، ولو من بعيد، وبين حادثته المروعة.

أسقطت من اسمها اسم جين الأوسط ووقّعت الرسالة باسم ميرلين ليكسايد.

كانت ميرلين تقف الآن على امتداد مطار فوق بريق المحيط، حيث تبدو الزوارق ذات الشراع المثلّث كلوحات جميلة على صفحة الأفق الرائع... وفي مكان ما هناك، عبر تلك المياه المتلألئة، تقبع بولاو - إنداه... الجزيرة الجميلة! وشدّدت قبضتها على يد حقيبتها، لأنها ستنقل بطائرة هيليكوبتر الى بيت بول فان سيتان على الجزيرة، بينما وضعت بقية أمتعتها في واحد من تلك القوارب زاهية الألوان.

وأحسّت بأنها أصبحت مشدودة الى أقصى حد في تلك اللحظة. وشعرت باقتراب الطيارمن جانب الطائرة الهيليكوبتر ذات اللونين الأحمر والأبيض، التي ستحلّق بها الى لقائها الأول مع بول منذ ذلك اليوم المؤلم البشع في غرفة العمليات الجراحية.

كان الشاب أندونيسياً، تمنى لها يوماً طيباً باللغة الهولندية. أخفت عينيها وراء العدستين الكبيرتين للنظارة الشمسية، بينما تكوّم شعرها البني المائل للاصفرار في عقدة في مؤخرة عنقها. وبدت بشرتها بيضاء ناصعة في عيني قائد الطائرة الهيليكوبتر المحدّقتين اليها. كان الطيار أسمر البشرة أسود الشعر، عيناه أشبه بهلالين من اليشب الأسود فوق عظام وجنتيه العاليتين.

قال لها:

«إننا الآن على استعداد للتحليق... هل تسمحين لي بحمل حقيبتك؟»

كان يتحدّث بالانكليزية، مّا جعلها تحسّ بارتياح. وابتسمت ميرلين وهزّت رأسها قائلة:

«أستطيع حملها بنفسي».

ونطقت بعبارة غريبة، فقال:

«تعلّمت إذن بضع كلمات من لغة الجزيرة».

وبدا بريق من الاهتمام في عينيه، ثم أضاف قائلاً:

«هذا أمر حكيم دائماً عند الذهاب الى أماكن أجنبية، فقد يحدث بعض سوء الفهم... أليس كذلك؟»

فأومأت برأسها، وان شعرت بأن هناك نوعاً طريفاً من السخرية في كلماته، وتذكّرت ما دار في أفكارها وهي قادمة بالطائرة الى هنا... وأن هناك مجالاً للثرثرة حول رجل في عمر بول يستضيف ويستخدم فتاة غير متزوجة في مثل عمرها.

كانت ميرلين في الحادية والعشرين، وان بدت أصغر سناً، وبول في السادسة والثلاثين، وكانت عزوبيته حتى الآن أمراً ملحوظاً برغم أنه عرف في المستشفى أن سيدتين جذابتين من سيدات المجتمع في حياته الخاصة... وفي الوقت نفسه، راض عن عمله الذي بدأه في انكلترا، حيث تدرّب على يدي السير ايفور كليفلاند الشهير. وتردّدت شائعات عن مشاركة بين الرجلين في عيادة خاصة... ولكن هذا الأمل تحطّم الآن ولم يعد له وجود.

شعرت ميرلين بعذاب حقيقي لأن لها يداً في دخول بول هذا النفق المظلم.

واثناء سيرها مع الطيار أخذت تبتهل الى الله في صمت حتى لا يعرف بول أنها الممرضة التي وضعت حنجور العيون المهلك في يده. وكانت تسائل

نفسها أيضاً عما إذا جاءت اليه لا على أمل اصلاح ما أفسدته فحسب، بل ولكي تعاقب على يديه.

وأمسكت يد بمرفقها، وساعدتها على الوصول الى مقعدها بالهيليكوبتر، وسلّمت لها سماعتان للأذنين حتى تسمع الطيار عندما يتحدث اليها وسط ضجيج هذا النوع من الطائرات... وكان ضرورياً بعد ذلك أن تخلع نظارتها السوداء... وقال لها الطيار:

«هل أنت مستريحة؟»

واستدار لينظر اليها، وعندئذ بدا في عينيه بريق مفاجيء، عندما رأى عينيها الكبيرتين العسليتين، والشامة السوداء الدقيقة في زاوية عينها اليسرى. وبدا وجهها هادئاً، بينما كان فمها يبدو أشبه بوردة حمراء ناعمة وسط بشرتها الصافية.

وأخذ يحدّق فجأة في أعماق عيني ميرلين، وبدت بسمة صغيرة عجيبة على أطراف شفتيه، وقال:

«هل كنت تعرفين الدكتور قبل أن يفقد بصره؟»

فهزّت رأسها بسرعة قائلة وهي تحسّ بالخوف من داخلها:

«كلا... لقد جئت لأكون سكرتيرته... لمساعدته على كتابة مؤلفه».

«اذن فأنت لا تعرفين أي نوع من الرجال هو؟»

«كلا... »

وكانت صادقة في ذلك... فهي لم تره إلاّ باعتباره جراحاً لامعاً فقط.. ولم تعرفه كانسان كفيف البصر، تملأ المرارة قلبه.

وارتفعت الطائرة الهيليكوبتر في الجو، بينما كان الطيار يقول:

«كوني حذرة يا آنسة ليكسايد... فهو أشبه بالنمر، لا يرى شيئاً في وضح النهار، أما في الليل فالأمر مختلف، اذ يستطيع السير في الغابة بجرأة لا يقدر عليها حتى أبناء الغابة، ويصبح سمعه حاداً كمخلوقات الظلام، لقد كان كما تعلمين رجلاً عظيماً في العالم الواقع وراء هذه المياه، بل لا يزال يستخدم يديه كطبيب عندما

يكون الأمر ملحاً... إنّ حواسه أكثر حدّة من حواسي أو حواسك. وما أعجب أن تشاهديه وهو يسير وكأنه ليس بأعمى... وفي بعض الأحيان يوشك على الاصطدام بشجرة ضخمة، ولكنه يتوقف فجأة. إنّ أهالي الجزيرة يخشونه قليلاً، ولكنهم ينظرون اليه أيضاً كما يسمونه سانج هاريماو».

«وماذا يعني ذلك؟»

واستطاعت ميرلين أن تشعر بهدير ضربات قلبها، وبرغم حرارة الجو والثوب الدافىء الذي ترتديه فقد أحسّت في تلك اللحظة بقطرات من الثلج خلال عروقها...

وقال الطيار:

«معناها ملك النمور الذي يرى في الظلام، ويسبح حيث تسبح أسماك القرش، ولا يخاف شيئاً... وهناك فتيات في الجزيرة على استعداد لالقاء أنفسهن عند قدميه، ولكنّه لا يراهن بعينيه ولا بقلبه. هناك برود كبير فيه يا سيدتي... برود حارق كذلك الذي في النمر الذي يطارد ما يؤذيه».

وارتعدت ميرلين، ولم تجرؤ على النظر الى الطيار، بل أخذت تحدّق الى أسفل.

إنّ بول فان سيتان الذي تعرفه لا يناسبه جلد النمر الذي ألقاه هذا الشاب الأندونيسي حول شخصيته. كانت تفكّر فيه وهو يخطو الى غرفة الجراحة وقد وضع القفاز في يديه والغطاء على رأسه، واثقاً تماماً مما سيفعله للشخص الغائب عن الوعي فوق منضدة العمليات؛ فهو سيعيد الأمل والشكل الى شيء مزقه المعدن أو شوّهه اللهب. أما النمر... هذا الحيوان الأملس الخطر، فهو يجوس ليلاً ويخيف الناس.

كلا... لا يمكن أن تصدّق أن بول قد تغيّر الى هذا الحد، من رجل متحضرّ رحيم الى وحش بدائي. ولو كان هذا صحيحاً، فانه لم يكن ليرسل في طلب سكرتيرة لمساعدته في اعداد كتاب قد ينقل الى الآخرين بعض المهارة والتكريس الذي وضعه في عمله.

كلا... إنّ هذا الشاب الذي يجلس بجانبها قد تكون لديه قشرة دنيوية ولكنه في أعماقه لا يزال من أبناء الجزر، ومثل هؤلاء الناس يتجرون بالخرافات ويستخدمون تعبيرات نادرة لوصف الأشخاص... لا شك أنهم يشيرون الى بول بهذه الطريقة، لأنه كان دائماً رجلاً مهيب المنظر، ذا تنسيق بدني ممتاز أتاح له احتمال جهد تلك العمليات الجراحية الطويلة، وبعد الانتهاء منها تبقى يداه كما كانتا في البداية.

عيناه فقط هما اللتان أطلقتا صرخة احتجاج موجعة... عيناه الرماديتان كالفولاذ، ضاع منهما البصر الثمين في تلك الأمسية البشعة، بعد ساعات طويلة من اعادة بناء جانب بأكمله من وجه امرأة جريحة.

وقال مبتسماً:

«والآن سوف تتمكن من مواجهة المرآة مرة أخرى».

ثم استدار نحو ميرلين وأخذ من يدها حنجور العين الصغير، ان قلبها ما زال يردّد صدى الصرخة المعذبة... يا إلهي... لقد كانت أشبه بزئير نمر عندما يظلم القمر.

«ماذا حدث؟»

كان قائد الهيليكوبتر يتحدّث إليها... ونظرت اليه نظرة لم تدرك تماماً كم كان فيها من اليأس والألم.

وقال لها:

«إنك تئنين... هل الطيران في هذا القفص يجعلك تشعرين بالمرض؟»

فقالت كاذبة:

«قليلاً... إنها أول مرة لي».

«بطبيعة الحال... ولكننا سنهبط سريعاً الى الأرض، ولا شك أنك بحاجة الى قدح من الشاي».

وافتر ثغره عن ابتسامة كشفت عن أسنانه البيضاء، ومضى يقول:

«إنّ الانكليز مغرمون جداً بالشاي أليس كذلك؟ إنّنا نزرعه في الجزيرة، ويعمل حد أبناء عم السيد مراقباً للمزرعة، انهم هولنديون بطبيعة الحال، وربما ظننت أنّ هذا الجزء من العالم قد خلّص نفسه من أسياده البيض؟»

فقالت معترفة:

«لقد ظننت ذلك حقاً... ولكن أليست الجزيرة يملكها شخص غني جداً، يدين للسيد فان سيتان بمعروف كبير؟»

«هذا صحيح... إنه موظف حكومي عالي المقام، من إحدى الأسر الملكية القديمة».

وابتسمت قليلاً رداً على حديثه... وقالت:

«كان كرماً منه أن يسمح للسيد فان سيتان بالاقامة في الجزيرة... ولا بد أن بول كان في حاجة الى نوع من المأوى بعد...»

وضاعت ابتسامتها، وفقدت سيطرتها على وجهها... ثم قالت:

«إنه لأمر محزن دائماً عندما يسمع الانسان أنّ رجلاً مثله فقد بصره».

فقال الطيار:

«حذار من إظهار الشفقة، انه لن يتحملها، فله إرادة من حديد وفي كثير من النواحي يعتقد الانسان أنه رجل مبصر... هل تعلمين يا آنسة ليكسايد أن هناك شيئاً يدهشني؟»

فسألته:

«ما هو؟»

«إنك أصغر كثيراً مما كنا نعتقد... لقد قال لي السيد هذا الصباح فقط، اذهب بالطائرة وأحضر السيدة القادمة للعمل عندي، وكن مؤدباً ومساعداً لها إذ أنّ الفتيات الانكليزيات العوانس اللواتي في منتصف العمر حذرات نوعاً ما».

ورمق الاندونيسي الشاب ميرلين بنظرة لا يمكن وصفها إلاّ بأنها نظرة عتيقة جداً وقال:

«لقد شاهدت سيدات انكليزيات عوانس عندما كنت في الكلية... ولكنهن لم

يكن في نصف شبابك، أولمن بشرة مثل داخل صدفة المحار مثالك.

واحمرّ وجه ميراليند.. ولم يكن ذلك لأنها غريبة على التملق فحسب، بل كانت تحس بعقدة الذنب، مدركة تماماً أنها عندما كتبت لبول فان سيتان، تعمّدت أن تجعل لهجة وأسلوب طلبها من نوع عتيق الطراز، حتى يضفي عليه أي شخص يقرأه صورة امرأة رزينة يعتبر العمل أهم بالنسبة إليها من أي حياة اجتماعية.

وأحست بأن الخجل يكاد يحرق بشرتها، اذ من الواضح أن بول انطلت عليه الفكرة، واعتقد أنها شخص ناضج في منتصف العمر، وكل ما تأمل فيه أنه، وقد فقد بصره، لن يدرك أنها أصغر كثيراً مما جعلته يعتقد، ولن يكون هناك أي اتصال عادي بينهما، كما أن لها صوتاً منخفضاً ناعماً لن يكشف حقيقتها.

ولكن قائد الهيليكوبتر يمكنه أن يفعل ذلك، وعليها أن تتوسّل اليه ألاّ يفعل، وقالت:

«أرجو ألاّ تقول شيئاً عن حقيقة أنني أصغر مما كان يعتقد، فأنا بحاجة ماسة الى الوظيفة كما ترى، وكنت أتوق للسفر، ولكن لم يكن هناك أمل في قطع كل هذه المسافة البعيدة ما لم أجد عملاً في هذا الجزء من العالم».

فقال، وهو يبتسم ابتسامة مراوغة وغريبة تماماً:

«يخيّل إليّ أنّ هناك سراً في أن تقطع فتاة آلاف الأميال للسفر الى جزيرة غريبة لتكون بين أناس سوف يجدونها بدورهم غريبة عنهم. انني لا أسرد أي حكايات على السيد، واذا كان لديك سر فهذا شأنك ولكن احترسي منه، إنّ حواسه مرهفة بصورة غير عادية، وقد يخمّن أنك فتاة بدلاً من سيدة عانس بلهاء، ولدينا مثل يقول إنّ الحماقة تستحق عقاباً دائماً».

كانت خفقات قلبها تتزايد بينما كانت الطائرة تهبط في يسر نحو قطعة الأرض الرملية المستقيمة، ثم تنحني مثل ذيل الأفعى لتخرج من بين الأشجار، ثم قالت:

«أتظن أنني كنت حمقاء بحضوري الى هنا؟»

واستقرّت الهيليكوبتر وبعد لحظة من الأصوات الحادة، ساد صمت مفاجىء بعد أن توقفت مراوح الطائرة.

واستدار الطيار ليواجهها وهو ينزع السماعتين عن أذنيه... وقال:

«ان قطعة الحصى وقطعة الماس سواء بالنسبة إلى رجل أعمى، كما تقول، ولكن السيد بول لم يكن قط رجلاً عادياً، فقد استطاع أن يجعل من الوجه الذي أحرقه الزيت لابن الرجل الذي يمتلك هذه الجزيرة، شيئاً صالحاً للنظر اليه مرة أخرى... واذا كان هناك شيء مؤذ له بوصولك بيننا، فسيكون من الحكمة أن ترحلي قبل أن أصحبك اليه».

«كيف يمكن أن أكون راغبة في ايذاء مثل هذا الرجل؟»

وأحسّت بألم عميق، ونوبة فزع مفاجئة، وهي تدرك أنها ستكون في خطر من هؤلاء الناس اذا اكتشفوا سرّها، وقال لها:

«ان النساء مخلوقات تدبّر المكائد، وليس هناك رجل يعرف حقاً ما اذا كان قلبه سيكون في أمان بين يدي امرأة، ان عينيك يا آنسة ليكساير لا تسهل قراءتها ولا يمكن النفاذ منها، مثل غابة من الزهور، وتحوطها الظلال عندما تنسدل رموشك عليها، أستطيع أن أراك، ولكني لا أعرفك، ولن يراك السيد ولكن الحصاة لن يكون ملمسها مثل الماس بين أصابعه».

وسألته ميرلين في عصبية:

«ماذا يفترض أن يعني ذلك؟»

«فقط.. لا تقتربي منه كثيراً».

وترجّلت من الطائرة قبل أن يأتي لمساعدتها... لقد أثار أعصابها بملاحظاته والطريقة التي بدا أنه يحدّس بها أن وراء وجودها هنا شيئاً أكثر من مجرد الرغبة في اشباع حافز للسفر. وأحسّت برعشة في ساقيها، فالخوف شيء لا يمكن إخفاؤه، وهي تحسّ به في نفسها... مع خشية متصاعدة مما سيواجهها خلال الدقائق القليلة القادمة.

وسألت:

«كم يبعد المنزل... وهل هو بيت كبير؟»

فأجابها وهو يشير الى درجات صخرية تؤدي من الرمال الى هضبة تعلوها:

«إنه مسكن الجزيرة».

«هناك في أعلى؟ وهل يعني ذلك أن السيد فان سيتان يشقّ طريقه هابطاً هذه الدرجات؟»

«إنه لا يفكّر في الخطر يا سيدتي».

فابتلعت ريقها الجاف، وتساءلت عما اذا كان بول لا يهتمّ بحياته لأنه يرى أنه ليس هناك الكثير ليعيش من أجله بعد أن توقّف عن عمل حياته...

وقال الطيار وكأنما قرأ أفكارها:

«ان لديه غلاماً صغيراً من أهل الجزيرة يقوده عند النزول، إنك لا تستطيعين إبعاد السيد عن البحر، برغم أنّ هناك خطراً بالنسبة إليه عندما لا يرى اقتراب سمكة القرش المفترسة في سكون... نحن أبناء الجزيرة نذهب الى الماء وحول وسطنا سكين، ولكن الشيء العجيب أنه يسبح في البحر منذ جاء الى هنا بدون أن يهاجمه سمك القرش، ولعل فقده بصره لا يشعره بالخوف أو الفزع الذي لا يستطيع المبصرون كبته عندما يقترب الخطر منهم... أو ربما كانت أحاسيس القرش البدائية تجعله يرى أنه يشترك في البحر مع شخص يعيش في ظلام تام».

وهزّتها تلك الكلمات، وحاولت تصوّر ذلك الطبيب طويل القامة، الواثق من نفسه وهو يعيش بهذه الصورة البدائية بعيداً جداً عن بيئة المستشفيات الطبية.

بول فان سيتان، ألمع جراح شاب درّبه سير أيفور كليفلاند، والذي كان من الممكن أن يواصل عمله، أصبح الآن واحداً من المتسكعين على الشاطىء، يحتاج الى شيء يشغل ذهنه الحاد، فيخطر بباله أن يؤلف سجّلاً لأعماله ويحدّد الطرق التي استخدمها في اصلاح الوجه والجسم البشري!

وأجفلت عندما لمست يد كتفها وسمعت صوتاً يقول:

«هل أنت على ما يرام؟»

وجدت الطيار الأندونيسي الشاب على مقربة منها... وازداد توترها بعد لمسة يده، وقالت:

«أجل، إنني أنظر الى غرابة كل شيء، وأشعر حقاً ببعض العصبية... هل تعتقد أنه سوف يغضب بشدّة اذا اكتشف أنني امرأة شابة؟»

«من الأفضل أن تتركيه يكتشف أولاً أنك عاملة جيدة، وبعد ذلك عندما تصله الهمسات...»

وتوقف التنفس في حلقها وهي تقاطعه:

«الهمسات؟»

فرفع حاجبيه السوداوين في تساؤل قائلاً:

«أجل عندما تكون فتاة صغيرة بمفردها في بيت رجل أعزب! إنّ كل شيء يعرف في الجزيرة، كل شيء يناقش، وأنت جذّابة جداً».

«كفى هراء، لست من النوع الذي ينظر اليه الرجال».

وكان الردّ الغريب موحياً بشيء ما:

«انه لن ينظر اليك... أليس كذلك يا سيدتي؟ سوف يضبط سمعه على صوتك، وهو خفيض ولطيف... وفي بعض الأحيان تتحسّس يده العمياء جسمك».

وصاحت ميرلين:

«كيف تجرؤ على الحديث هكذا!»

لقد أصابت كلماته المشاعر المختفية الكامنة في أعماقها، وجعلتها تشعر بشبه اغماءة لدى فكرة ملامسة أصابع بول النحيلة البارعة لجسمها، وترنحت في وقفتها فمدّت يدها تمسك بجذع شجرة قريبة.

وقالت وهي تهتز:

«لست معتادة على كل هذا القدر من الحرارة، كأنني هبطت في إحدى جزر الجحيم الشيطانية».

«ربما كان الأمر كذلك».

كانت تريد أن تلقي بنفسها على الرجل وتحتفظ في ضعف تحت ظلال شجرة النخيل، وسيكون هذا سلوكاً أشبه بما يفعله الأطفال. إنها الآن في بولاو إنداه. ويجب أن تواجه عواقب عملها الأحمق بحضورها لتكون مع رجل أصيبت حياته بنكبة بسببها.

«هيّا، أننا نقترب من الغروب، وسوف تجدين أن الأمسيات على الجزيرة ساحرة. تعالي واسمحي لي أن أصحبك الى بيت النمر».

فهتفت تقول:

«هل تمزح؟»

«كلا على الاطلاق... هذا هو اسم المسكن، وهو الاسم الذي أطلقه عليه صاحبه، وبطبيعة الحال فإن له مغزاه نظراً للقب الذي يطلقه أهالي الجزيرة على السيد».

فسألته وقد شرعا في صعود الدرجات الصخرية جنباً الى جنب:

«ألم يكن في استطاعتك الهبوط بالطائرة على الهضبة؟»

«ليس هناك إلاّ شقة من الأرض تصل حول طرف وادي الشاي... وسيكون الهبوط هناك محفوفاً بأريحيه ولكنه باهظ الثمن».

«هل هناك واد... وكيف نصل الى... بيت النمر؟»

«اننا نعبر جسراً من الخيزران، معلقاً عبر وادي الشاي الى بوابات المنزل، فهو أشبه بقلعة، فقد اعتاد القراصنة الصينيون في الماضي شنّ غارات بحثاً عن الفتيات والبهارات وخشب الساج... إنّ للجزيرة تاريخاً يا سيدتي».

وتنفّست بقوّة... وبينما كانا يصعدان نحو حافة الوادي تسللت الى خياشيمها رائحة أشجار الشاي العتيقة، ممزوجة بأشجار التوابل التي لا تزال تنمو هناك، ورائحة النخيل التي لفحتها الشمس، كان قلبها يخفق بسرعة، بسبب خليط من الاجهاد والتأثر والخوف.

ستري سريعاً مرة أخرى الرجل الذي كانت تحبه وهي طالبة تمريض، عبر

المرّة التي تفصل بين العاملين في غرفة العمليات الجراحية... وبين الجراح نفسه!
كانت في تلك الأيام صغيرة، خيالية العاطفة، وكانت تحلم أحياناً بمغامرة غير متوقعة مع بول فان سيتان، كأن يحبسا معاً في المصعد السريع لمبنى المستشفى الشاهق الارتفاع، فيحدّق في عينيها ويكتشف أنها فتاة حيّة حقا وليست مجرّد يدين مساعدتين!

واعتصرت آلام الذكرى قلبها، هاتان اليدان المساعدتان، كانتا السبب بدون أن تعرف في ضياع بصره، بصر الرجل الوحيد في العالم الذي لو طلب عينيها وروحها، لقدّمتهما له.

٢ - بيت النمر

كان البيت يقف بين أشجار التوابل والكافور، وله شرفة كبيرة مرتفعة تقف على أعمدة من خشب النخيل، وسقف ضخم من جدائل السعف بلغ من سمكه أنه كان يبدو كالمنحوت، وخلفه فناء تحيط به أبراج حجرية، ونافورة في وسطه أشبه بزهرة لوتس.

وقفت ميرلين تحدّق في البيت بدهشة كالمأخوذة، أنه ينبثق تماماً من عهود الاستعمار، عندما كان الهولنديون يسيطرون على تلك الجزر، سادة التوابل وزرّاع الشاي، لم يكونوا قساة قط في معاملتهم، ولكنهم كانوا يحكمون بيد من حديد داخل قفاز.

كانت أشجار الكازوارينا تهمس، أصداء ماض بعيد، يبدو أنه ما زال سائداً. بينما كانت ميرلين تسير مع الاندونيسي الشاب نحو درجات الشرفة... وهناك توقفت وأحسّت برعشة في ساقيها، الآن لن تستطيع التراجع.

وقف الطيار وقد وضع إحدى قدميه على درجات الشرفة وأخذ يتفحص وجهها الشاحب مقطّباً جبينه وكأنه يريد أن يرى ما وراء الاطار الكبير لنظارتها الشمسية، وقال:

«ما رأيك يا آنسة ليكسايد؟ هل أحببت بيت النمر؟»

«انه ملفت للنظر، على النمط القديم الى حدّ بعيد».

«ان الأمور لا تتغير بسرعة فوق الجزر، هل أنت على ثقة من أنك تريدين المغامرة داخل بيت النمر؟»

ومرّت لحظة صمت طويلة من جانبها. لقد عرفت عندئذ أن هناك خياراً معروضاً عليها، وأنها إذا سلكت سبيل الجبناء، فإن هذا الشاب سيعيدها الى طائرة الهيليكوبتر، ويعود بها الى اليابسة...

ودوّى صوت مفاجيء ليحطّم السكون بين ميولين والطيار، قائلاً:

«أهذا أنت يا لون؟ هل أحضرت معك السيدة القادمة من انكلترا؟»

وأحسّت ميولين بساقيها على وشك أن تخذلاها. فقد عرفت على الفور هذا الصوت العميق، وكانت تعرف أنها عندما تستدير للناحية اليسرى من المنزل فإنها سترى بول فان سيتان واقفاً هناك.

وأدار لون جسده النحيل قائلاً:

«أجل يا سيدي».

وأدركت ميولين أنه كان ينظر تماماً الى الرجل الذي يجب أن تواجهه في اللحظات القليلة التالية. انها لم تشعر بمثل هذا الخوف، ومثل تلك اللهفة... كانت تتوق الى أن تمتّع عينيها بمنظر بول، غير أنها تراجعت عن رؤية عينيه الكفيفتين، برغم أنها كانت تعرف أنهما مغطيتان.

وسأل بول، وكأنما كشفت حواسه المرهفة شيئاً جعله متحفزاً:

«هل كانت رحلة الآنسة ليكسايد مريحة؟»

وردّ الطيار نيابة عنها قائلاً:

«بكل تأكيد يا سيدي».

ولكن ميولين كانت تدرك أنّ اللحظة الحاسمة قد حانت لكي تستدير وتتكلّم وتصبح وجوداً فعلياً بالنسبة الى الرجل الذي لن يستطيع رؤيتها.

ودارت حولها ببطء شديد وهي تناضل حتى لا يرتعش صوتها عندما تتحدّث اليه، وقالت:

«كانت رحلتي طيّبة جداً يا سيد فان سيتان، وكان طيارك كريماً جداً معي».

وراحت ترقبه وقد توقفت أنفاسها، بينما مال رأسه الذهبي، وكأنه يقيس صوتها

ويحكم منه على طولها ومزاجها... وأحسّت بوخز في قلبها وقد هزّها أن رأت أن عينيه ليستا وراء نظارة سوداء، ورجعت خطوة للوراء كأنما ليتمكن من رؤيتها.

هناك لهب يبدو مشتعلاً في وسط عينيه، ولا توجد آثار لحروق، وهي تعرف السبب. لقد فعل سير أيفور كليفلاند كل ما في وسعه من أجل بول بعد الحادث وكل ما استطاع هو استخدام مهارته بمبضعه لكي يعيد الى العينين الرماديتين الفولاذيتين ما كان لهما من مظهر حادّ نافذ.

واقترب منها بخطى حازمة وكأنه يعرف كل بوصة في الفناء، وقد مدّ يده للترحيب بها قائلاً:

«كيف حالك يا آنسة ليكسايد؟ أرجو أنِ تعتادي سريعاً على جزيرتنا التي ستبدو غريبة لك في البداية».

كانت ميرلين قد وضعت يدها النحيلة في اليد الممتدّة اليها عندما تذكّرت تحذير الطيار لها بألاّ تسمح لبول بأن يلمسها، وبدا قلبها يثب هلعاً وهي تشعر بأصابعه تعبث بأصابعها وتتحسّس عظامها الدقيقة، وبشرتها الناعمة التي تخلو من العروق البارزة التي في أيدي النساء الأكبر سناً.

وقال لها:

«إنّ للعمى متاعبه يا آنسة ليكسايد كما ترين».

ثم قلب يدها عن عمد، وأحسّت بأطراف أصابعه تجوس في راحتها، وتتحسّس خطوط الحياة فيها، والنتوء الذي تحت ابهامها. كانت لمسته مؤلمة الى حدّ التعذيب، فبهذه اليد أعطته حنجور غسيل العين التي سكبت محتوياتها الظلام في عينيه الرماديتين.

وقال:

«إننا مضطرون لاستخدام مثل تلك الوسائل في قراءتنا لأولئك الذين يجب أن نعيش ونعمل معهم، فلا تنزعجي كثيراً. أستطيع أن أشعر أنك منزعجة فعلاً. أخبريني، هل تعزفين على البيانو؟»

«أجل».

«رائع... آمل أن تعزفي لي أحياناً اذ أنني أصبحت مولعاً بالموسيقى في عزلتي. ولدينا في الداخل بيانو كبير نوعاً ما نرعاه كأنه قطعة مجوهرات، ونغطيه بغطاء من الفلّين لحمايته من النمل الأبيض والحرارة. أرجو أن تكوني مستعدة للحرارة يا آنسة ليكسايد، فلك بشرة باردة، ولكن عندنا شمس ساخنة جداً. ومن ثمّ فلا تسيري تحتها وكأنك في حديقة هايدبارك!»

واهتزّ قلبها بشدّة عندما ذكر ذلك الجزء من لندن، فقد كان المستشفى يقع بجوار الحديقة، وكانت الممرضات مغرمات بالمشي هناك والتجديف في القناة مع الأطباء الشبّان. وثبتت عينيها على وجه بول وأخذت تتفحّص عينيه غير المبصرتين في ذعر وخوف، أيكون من الممكن أنه حدّس من تكون. هذا الرجل الأسمر الصلب، لم يعد ذلك الجراح صاحب الروح الانسانية. فهذه القشرة الخارجية قد أحرقها الألم والشهور الطويلة فوق تلك الجزيرة التائهة في خضم الزمن.

وقال لها :

«أيتها السيدة، أليس لديك شيء تقولينه للرد علي؟»

كانت في صوته نغمة من السخرية تمتزج بقدر من التسامح، وبدأ التوتر يتسرّب من ميرلين عندما لاحظت أنه استخدم كلمة سيدة باللغة الهولندية في مخاطبته لها، ومن ثمّ فانه لم يشك في أنها ليست سيدة عانساً. لعلّه يتصوّرها ببصره المفقود ذات جسد شديد النحول وشعر أشهب مصفّف بشكل متزمت.

وشقت البسمة طريقها الى شفتيها بعد أن أحسّت بارتياح وقالت:

«سأحاول ألاّ أكون حمقاء الى حدّ كبير يا سيدي، فانني أدرك أنني الآن في جزيرة استوائية، وقد جئت مستعدة بقبعة كبيرة من القش».

«كانت لي عمة ترتدي دائماً قبعة كبيرة مستديرة مع وشاح من الشيفون مربوط حولها لابقائها فوق وجهها... كانت فوق عقدها الثامن، ولكنك لست عجوزاً الى

هذا الحد، أليس كذلك؟»

وأحسّت ميرلين بنوبة ذعر عابرة عندما قال ذلك... ولكنها تلاشت عندما استدار في اتجاه لون وسأله:

«هل وصلت حقائب الآنسة ليكسايد؟ اذا كانت قد جاءت فاطلب من راني أن يأخذها الى غرفة اليشب التي نظفت جيداً وصقلت وأصبحت جاهزة للسيدة».

وقال الطيار في أدب:

«أجل يا سيدي».

ونظر الى عيني ميرلين، وبدت في عينيه نظرة تحذير لها... إنّ كل شيء على ما يرام الآن، فقد خدعت رجلاً أعمى وجعلته يعتقد أنها امرأة من النوع الناضج يمكن أن تشترك في مسكن مع رجل في الثلاثينات من عمره، بدون أن تثير أيّة تكهنات، كانت نظرة لون تحذّرها من أنها تلعب بالنار، وأن حرمان رجل من بصره لا يسلبه بقية حواسّه الأخرى.

وقال لون:

«سوف أشرف فوراً على نقل حقائب السيدة الى غرفتها».

ووجدت ميرلين أنها غير قادرة على النظر اليه، أوحتى لتذكر الحقيقة لبول، فقد يعيدها من حيث أتت، وهي لا تريد الابتعاد عنه بعد أن رأته مرة أخرى... كان هناك شيء مؤثر في عماه، ولكن كان هناك أيضاً شيء مثير في هذا الرجل الذي لفحته الشمس والبحر حتى أنّ إبعادها عنه سيكون عذاباً شديداً لها.

وفجأة قال لها:

«هل تشعرين بهدوء أيتها السيدة؟ هل تتساءلين إذا كنت قد فعلت شيئاً حكيماً بحضورك للعمل معي في مكان يبدو لك أشبه بالبراري؟»

«انني أتطلّع، الى الأشجار والنباتات الغريبة».

كانت تحاول أن تضع في صوتها لهجة توحي بالثقة، ولكنه بعد لحظة بدا وجهه

وهو يتحدّث قاسياً مهدداً. ترى ماذا يتخيل الآن بعد أن وجدت نفسها في وجوده تنفر من بصره الضائع؟ وقال:

«أجل، لا بد أنها تعرض صفاً من الألوان الرائعة. ولا يمكنني إلاّ أن أخمن جمالها من أريجها وتحسّسها. أتظنّين يا آنسة ليكسايد أن العمل مريح مع رجل يمضي حياته في نفق من الظلام لا نهاية له. وبلا ضوء في الطرف الآخر؟ تحدّثي يا سيدتي بصراحة. إنّ طياري يستطيع دائماً أن يعيدك بالطائرة الى الحضارة اذا شعرت أن هذه الوظيفة لا يمكن احتمالها».

فقالت بسرعة:

«لا أريد الرحيل. ليس قبل أن تتاح لي فرصة لكي أثبت لك ولنفسي أنني أستطيع العمل، واعتياد فقدك لبصرك. وأؤكد لك أنك اذا سقطت على وجهك فانني لن أصرخ».

«قد لا تكونين كذلك، ولكن هل شاهدت من قبل أفعى تزحف عبر أرضية الغرفة، أو سمعت قرقعة العناكب الضخمة قبل أن تسرع الى أعلى الجدار بلحظة؟ انك لست عمياء، وسيكون عليك أن تعيشي مع هذه الأشياء أيضاً».

«لقد كنت أعرف ذلك عندما قدّمت طلبي للوظيفة يا سيدي، ولكن آمل أن أكون متعقلة ولا أفقد أعصابي عندما أرى هذه الأشياء».

قال:

«كانت لهجة طلبك معقولة، وكنت على وشك أن أقرّر استخدام سكرتير من الرجال. ثم جاء طلبك. وعندما ناقشت الأمر مع ابن عمي الذي يقضي الآن أجازة في هولندا، قرّرت أن أخاطر بطلب حضورك. إنّ الرجل الأعمى يا آنسة ليكسايد عليه أن يعتمد الى حدّ كبير على حواسه الأخرى. ولقد افتقدت صوت المرأة، هل يبدو ذلك عجيباً لك؟»

«كلا على الاطلاق».

ومن وراء زجاج نظارتها الشمسية سمحت لعواطفها بالتدفق. كانت تدرك أنه

وحيد بصورة رهيبة، ويفتقد وجود امرأة حوله .

قال وفي صوته لمحة من ضبط النفس:

«إنّ لك صوتاً لطيفاً، وأنا سعيد بذلك، فهو من العلامات المسجلة للممرضة، ألم تعملي قط كممرضة؟»

لقد جاء هذا السؤال المخيف أخيراً، ولم يكن هناك مهرب من ردّ صادق، وكانت قد ضمّنت رسالتها ما لا بدّ أنه يفترضه، وقالت إنها عملت سكرتيرة في احدى المستشفيات، وقالت معترفة:

«لقد كنت ممرضة لفترة ما، ووجدت أنه ليس لديّ المزاج المناسب، فتركت العمل».

«هناك جوانب كثيرة من التمريض يمكن أن تكون غير جذابة، ولكنه عمل جدير بالثناء وعلى المرأة أن تكرّس نفسها له، تماماً كما يتزوج الجراح مبضعه».

وتنهّد بعمق... وتمنّت ميرلين من كل قلبها لو أمكنها أن تهرع اليه وتضع رأسه الذي لفحته الشمس على صدرها، كانت تريد أن تبعد عنه الأذى، ولكن عليها أن تقف حيث هي، وأن تقوم بدور سيدة عاملة في منتصف العمر، غريبة بالنسبة إليه، وكأنها لم تر هاتين اليدين القويتين وهما تقومان بضربات قوية بالمبضع لتشفي جسماً مشوهاً، أن العمل معه سيكون نوعاً من التعذيب اليومي لها.

وقال ليغيظها وكأنما استفزّه صمتها وأثار حب استطلاعه:

«هل يخيفك أن أكون الرجل الذي يفرض عليك مهامك؟ هذا أمر محتمل جداً، إذ أنني المسؤول فعلاً في هذه الجزيرة، ويسميني الأهالي توان بيسار أي السيد، وكلمتي هي القانون».

فقالت: «انني واثقة أنها كذلك يا سيد فان سيتان».

وجعلت صوتها يبدو مطيعاً، ولم تقل له إنّ لون قال لها أيضاً ان له لقباً آخر... كان هناك شيء نخيل وخطير في جسمه يذكّر المرء فعلاً بنمر أصفر مائل للسمرة، ولم يعد في امكانها أن تتصوّره في واحدة من تلك الحلل الرمادية

الكاملة، وأربطة العنق الأنيقة المعقودة ببراعة على قميص أبيض، وهو يقف في المصعد السريع الذي ينقله الى الطابق الأسفل من المستشفى حيث تنتظره سيارته لتأخذه لتناول الغداء في فندق الهيلتون أو الريتز. لقد وقفت أكثر من مرّة معه في المصعد، من غير أن يشعر بها والآن يعيش في جزيرة استوائية، تفيض بروائح التوابل، وتزخر بالزهور البرية، وحياة الغابة. وكانت ميرلين تشعر في ثقة أنها جلبت الى بول فان سيتان وعياً بالأشياء الحسية... أصبحت لمسته ذاتها حساسة جداً. وسرت في بدنها رعشة لم تستطع التحكّم فيها، وأحس هو بها فقال:

«لا بدّ أنك تشعرين بارهاق بالغ بعد رحلتك يا آنسة ليكسايد، يجب أن ندلف الى الداخل لنتناول بعض الشاي... شاينا الخاص الذي نزرعه في الوادي».

فقالت:

«انني أحب حقاً أن أتناول قدحاً من الشاي».

ودارت ببصرها باحثة عن الطيار، ولكنّها اكتشفت أن لون تسلّل بعيداً، ولا شك أنه ذهب للتأكد من وصول متاعها. لقد أحضرت معها آلة كاتبة صغيرة، وملأت حقائبها بقدر ما سمحت ماليتها ثياباً للمناطق الاستوائية».

وأضافت قائلة:

«إنّ وادي الشاي جميل جداً. تنبعث منه روائح مبهجة».

«أما جماله فانني يجب أن أتخيله، ولكنّ رائحته فهي أشبه بريح من السماء وخاصة عندما تغرب الشمس، وهذه الرائحة سوف تصعد الى شرفتك يا آنسة ليكسايد، فغرفتك تطل على الوادي».

كان قد توقّف عند أعلى درجات الشرفة وهو يتكلّم، وعندئذ أدركت ميرلين فجأة أنه كان قريباً جداً منها، حتى أنها استطاعت أن ترى رموش عينيه فاقدتي البصر.

كان يميل بجسمه الفارع نحوها، وأخذت عيناها تقيسان كتفيه العريضتين،

وصدره الصلب الذي يبدو من قميصه المفتوح حيث يبرز شعره الكثيف الذي ينحدر الى ما تحت حزامه... ووجدت نفسها تتنفس بسرعة ونعومة.

إنّ الحقيقة الوحيدة الملتهبة لذلك الحادث المروّع الذي أصاب عينيه، هو أنها كانت تحبه، ولكنه كان يومئذ نوعاً من عبادة البطل. أما الآن فقد وجدت نفسها تحسّ به بطريقة مختلفة تماماً.

وارتعشت ساقاها وهي تقف في مكانها ساكنة وكأنها تتوقّع أن يحيطها في أية لحظة بذراعه الصلبة ويضمّها الى صدره!

وأحسّت بما يشبه الصفعة على وجهها عندما قال بصوت المضيف المؤدب: «انني أتناول العشاء في الثامنة والنصف يا آنسة ليكسايد، ولما كان عندي طاه إندونيسي فانني آمل ألاّ تتضايقي من الأطعمة التي يقدمها عادة. إنّ طعامنا قد يبدو لذوقك الانكليزي لاذعاً قليلاً في البداية، ولكنك سوف تعتادينه. إلاّ اذا كانت لديك أية مشكلة خاصة بنظام الغذاء، أو ربما فضّلت طهو طعامك بنفسك، وهذا يمكن ترتيبه».

فقالت:

«انني لست صعبة الارضاء فيما يتعلّق بالطعام».

وأحسّت بوجنتيها تلتهبان، ولكنها استطاعت أن تحتفظ بثبات صوتها برغم أنها كانت لا تزال تحسّ بهزة في أعماقها، فلتعاونها السماء، اذ سيكون عليها أن تتحكّم في مشاعرها، حتى لا يعتقد أنه هدف لرغبات مكبوتة لفتاة عذراء!

كانت دوارات الريح فوق أعمدة من الخيزران تحدث رنيناً فوق رأسها وهي تدلف الى القاعة الطويلة الظليلة، حيث كانت أجنحة المراوح الكبيرة المعلّقة في السقف العالي تدور... ورأت الدواليب المصنوعة من خشب الساج، والموائد المنخفضة من خشب الابنوس، ومقاعد طويلة من الخيزران المجدول وعليها وسائد زاهية.

وانحنى بول على مائدة عليها جرس فضي وجده بأصابعه وقرعه قائلاً:

«سيحضر خادم المنزل الشاي بعد دقائق. ما رأيك في غرفة جلوسي؟»

«جميلة جداً يا سيدي. انها بهيجة ومريحة».

«وهي ليست كما كنت تتوقعين تماماً من أعزب يعيش في الأحراش... أعزب أعمى. لا بدّ أن أتحدّث بصراحة، حتى لا يتفادى أحد هنا حقيقة أنني كذلك، ولا يشعر أحد بحرج اذا تكلم عن شيء لا أستطيع رؤيته...»

واتجه نحو خزانة هولندية مطعمة، وهو يشق طريقه بحزم وبلا تردد... وراقبته وهو يمر بيده فوق الخشب المطعم وقال:

«انها من هولندا وكانت لجدتي... وأنا أعرف أن بها زهور زنبق مطعمة بالخشب الأطلساني. واذا راقبتني فسوف ترين أصابعي وهي ترسم هذه الزهور. ما أقوى حاسّة اللمس عند الشخص الأعمى. إنّ أطراف أصابعي تستطيع أن تحسّ بالتشكيلات المختلفة في ألياف الأخشاب. تماماً كما أعرف كل رسم معقد على مقبض هذا السكين».

وبينما كان يتكلّم، أخذ يعبث بخنجر ساموراي كان موضوعاً في خزانة النفائس، وراحت يداه القويتان تجوسان فوق السلاح الجميل المميت، وقال:

«كان هذا في المنزل عندما جئت للاقامة فيه، وكانت تلك الشفرة التي أثارت اهتمامي، حادة لا تخطيء. لقد توقفت أنفاسك عندئذ. فهل يخيفك أن أتحدث عن مثل هذا الشيء؟»

وقالت وهي تحدّق في هلع الى الخنجر:

«أجل... كلا... أعتقد أنني أستطيع أن أدرك مدى بشاعة العيش في الظلام... ولكن لا أعتقد أنك ستنهي كل شيء... بهذه الطريقة!»

«ولِمَ لا؟»

«لأنك لست من هذا النوع من الرجال. لقد أنفقت حياتك تنقذ الأرواح ومن ثم فانك لن تضيع حياتك بلا مبرر. لقد تعلمت كيف تعيش مع آلامك».

«هل تعتقدين ذلك؟»

«طبيعة الحال، ان المرء لا يستطيع أن يعرف شيئاً اذا نظر إليه، فليست هناك أية علامات على عينيه».

«ماذا يجب أن تكون هناك علامة عليها؟».

كان صوته قد تغيّر فجأة وبدت فيه لهجة تشبه التهديد، وتصلّب فكه وكأنه قدّ من فولاذ، وتسارعت ضربات قلبها، واضطربت أعصابها مرة أخرى وهي تقول:

«لقد أصبت في حادث... أليس كذلك يا سيدي؟ انني أذكر أنني قرأت عنه في الصحف، ولكني لا أعرف كل التفاصيل».

«اسمحي لي إذن أن أزودك بها، لقد اعتدت بعد إجراء كل عملية أن أغسل التعب عن عينيّ بمطول مكثف من حامض البوريك. وبعد ظهر ذات يوم أعطتني فتاة حمقاء محلولاً خطأً ووضعته في عيني... انني لن أمضي في تلك التفاصيل حتى لا تضطرب معدتك، ولكن لو استطعت أن أمسك هذه الحمقاء الصغيرة لانتزعت الحياة من أعماقها. ولكنني بدلاً من ذلك استلقيت على ظهري بعض الوقت، اذ لا بدّ من اجراء عملية حتى تبدو عيناي على الأقل مثل بقية العيون ولو لم تستطيعا القيام بوظيفتهما بعد ذلك... كان عملي هاماً جداً، ولديّ مشروعات لن يتسنى تحقيقها قط، وأصبحت محاطاً بظلام بصري، ولكن ليس مع أي نوع آخر من الظلام، هل تروقك كلمة الظلام يا آنسة ليكسايد؟»

واستبدّ بها الرعب... انه يعرف بشكل ما... لا بدّ أنه يعرف وإلاّ ما تحدّث هكذا الى شخص يعتبره غريباً، وبرق الخنجر بين أصابعه وأحسّت كأن طرف نصله قد وضع على حنجرتها.

وقال:

«أجل، انني أستطيع أن أحسّ بأنك روعت...»

وبدا وكأنه ينظر إليها مباشرة، كما بدت كل كلمة كأنها تعنيها وحدها، ومضى يقول:

«أريد أن تعرفي أي نوع من الرجال أنا، لأننا سنعمل معاً بضعة شهور. ولن أكون دائماً رقيقاً أو صبوراً، وأود أن يكون مفهوماً بيننا الآن أنك لن تولولي عندما أعنفك، فانني لا أستطيع أن أتحمّل دموع امرأة... لقد قالوا لي أنّ هذه الممرضة الحمقاء المجرمة انهارت وأخذت تبكي باستمرار خلال التحقيق، بيد أنّ الدموع لا تستطيع أن تجرف حامض الكراهية، ولعلك تعلمين أنك ستعملين لحساب رجل قلبه أسود... مظلم ؟ ...ه، ولهذا أحتاج الى امرأة حساسة هنا، امرأة قادرة على أن تتحمّل العمل مع رجل يمتلىء بالمرارة... فهل أنت قادرة على ذلك؟»

وظلّت ميرلين لحظات عاجزة عن الرد عليه، لقد رفعها الى ذروة الرعب، وهو الآن يلقي بها في حفرة من الارتياح.

وفي تلك اللحظة الحرجة أقبل الخادم بعربة الشاي الصغيرة، حيث دفعها نحو المائدة بجوار مقعد ميرلين مباشرة، وكأنه يفهم بدون تعليمات أنها هي التي ستتولى صبّ الشاي.

وقال بول له:

« راماي هذه هي السيدة ليكسايد التي ستقيم معنا هنا، لقد جاءت من انكلترا وستشعر بالغربة بيننا بعض الوقت، فابذل كل ما في وسعك لتجعلها تشعر بالراحة».

فقال الفتى وهو يحدّق في ميرلين ويجوس بعينيه السوداوين السريعتين في كل ملامحها:

«أجل يا سيدي».

وبدا على الفتى أنه يعجب لماذا يتحدّث عنها السيد بهذه الطريقة وليس باعتبارها فتاة صغيرة كما تبدو وهي قابعة في المقعد الخيزراني بثوبها الأبيض البسيط، وقد أمسكت ذراعي المقعد بيديها.

وعاد الفزع يدور في أعماق ميرلين وهي ترى هذه النظرة في عيني الخادم، ثم رأته يهز كتفيه.

وقال الخادم:

«الشاي والكعك للسيدة كما أمرت يا سيدي، هل هناك شيء آخر؟»

قال بول:

«والآن يا راماي، هل نقلت حقائب السيدة الى غرفة اليشب؟»

«أجل، وسأقوم بفتحها اذا رغبت السيدة في ذلك وسمحت لي بالمفاتيح».

فقالت ميرلين بسرعة:

«كلا، شكراً لك، ولكنني أفضل أن أخرج أشيائي بنفسي».

فقال بول:

«كما تأمر السيدة».

ونظر الفتى اليها مباشرة، وفي هذه المرة كانت بسمته وقحة بعض الشيء، ثم غادر الغرفة، وبدأت ميرلين في صب الشاي، وهي تقول لنفسها: كم من الوقت سيمضي قبل أن يكتشف بول أنه خدع، وأن هدف هذا الكره الأسود قد وضع في منزله، ويقوم بدور سكرتيرة في منتصف العمر!

وجلس بول في مقعد طويل يواجهها، وبينا كانت ميرلين تمسك ملقاط السكر الصغير لتضع القطعة في كوبه، كانت تحس بسيطرة جسمه الضخم بصورة لا تحتمل، حتى أنها فعلت الشيء الذي حاولت جاهدة ألاّ تفعله، فقد أسقطت الملقاط على المائدة، قال:

«لماذا تهتزّ يدك؟ لماذا تشعرين بعصبية؟»

«ربما لأنني أشعر ببعض التعب، ولعلك تذكر يا سيدي، أنني لم يسبق لي الابتعاد عن الوطن كل هذه المسافة، كما أشعر بأنني غريبة».

وتناول قدحه وهو يتمتم شاكراً... وقال:

«هل أنت وحيدة في انكلترا؟»

«أجل».

وأضافت بعض القشدة الى قدحها، بينا طافت بخيالها صور تلك الغرفة

الضيقة في توتنهام حيث قضت أغلب حياتها منذ فصلها من المستشفى الذي كانت تقيم فيه بغرف الممرضات. وكان في استطاعتها أن تتجه شمالاً للبقاء مع أمها وزوج أمها، ولكنهما كانا سيوجهان اليها العديد من الأسئلة، وهي تريد أن تترك وشأنها.

وقالت مرة أخرى:

«أجل، انني أعيش بمفردي، اذ أنني كما كتبت لك يا سيدي عانس مسؤولة عن كسب عيشي. وقد أحببت فكرة العمل في جزيرة لبضعة شهور».

«هل بدت لك الفكرة رومانسية؟»

كان متكئاً يشرب الشاي، ولكن ميرلين كانت واثقة أنها رأت التواءة تهكم على شفتيه، وكأنما يسخر من فكرة أن تساور امرأة عانس، من الواضح أنها وحيدة لأن الرجال يجدونها غير مثيرة، فكرة سخيفة بأن جزيرة بعيدة ورجلاً أعمى يمكن أن يهيء لها قصة غرامية!

وقالت: -

«انني لست ممن يطاردون قوس قزح يا سيدي، ولكنني أحببت فعلاً فكرة الجزيرة البعيدة جداً عن اضطراب وصخب الحياة الحديثة. لقد بقيت الجزر سليمة. أليس كذلك؟»

«ليس بواسطة قوى الطبيعة كالأعاصير. أمل أن تتناولي الكعك. فان الطاهي سوف يشعر بالاهانة إذا عاد إليه بدون أن يمس».

«هل تتناول واحدة يا سيدي؟»

«انني أفضل تدخين سيكار. اذا لم تمانعي في النوع الهولندي القوي؟»

«كلا... أرجوك أن تدخن».

وراقبته ميرلين وهو يستخدم شوكة في اخراج سيكار داكن رفيع من صندوق منقوش، ثم أشعل قداحته عند طرفه، حتى خرج الدخان من خياشيمه، ودهشت من براعته، كانت له دائماً هاتان اليدان الواثقتان الماهرتان، ولعلّ فقد

بصره زاد من حاسة اللمس لديه.

وقال لها:

«استمري في تناول الكعك، فأنت غير مضطرة الى مراقبتي وكأنني سأحرق نفسي، أجل... أعرف أنك جالسة هناك كأمّ مشدودة الأعصاب على استعداد للقفز لانقاذ طفل شقي، ولكنني قادر تماماً حقاً يا سيدتي».

«انك رائع... فلم أعرف قط شخصاً ضريراً يستطيع أن يفعل ذلك، وأن يعتمد على نفسه بهذه الصورة!»

«التدريب... والرغبة المحدّدة تماماً في ألاّ أكون عبئاً على المبصرين، ومثل الصم فان حالتي يمكن أن تكون مزعجة جداً».

وصاحت:

«كلا...»

ولم تستطع أن تكتم رنة الألم في صوتها، ومرة أخرى رأت شفتيه تتخذان تلك الالتواءة.

قال والدخان القوي يحيط بوجهه:

«بل نعم! إنّ الذين يستطيعون الرؤية يأخذون أشياء كثيرة كأشياء مسلّم بها، ولكن هناك فعلاً تعويضات للعميان... فالخيال يمكن أن ينطلق أحياناً معربداً، وأستطيع أن أضع على وجوه فارغة أي نوع من الأقنعة التي تدور بخيالي... هل أصف قناعك، ونرى مدى ملاءمته؟»

«كلا... لا أظن أنني أريد ذلك».

«انني مخدومك... وأنت خاضعة لأوامري... فلا تنسي ذلك... إنّ لك وجهاً متحفظاً نوعاً ما كما أعتقد، وأنت لا تضعين إلاّ القليل جداً من مساحيق التجميل، وعطراً متحفظاً جداً، مما يعني أنك لا تعتبرين نفسك مثيرة للرجال».

«انني عادية جداً».

وأحسّت بالعصبية أيضاً لتصويره البارع لها، وكأنه كان يعرف مقدّماً

الشخص الذي يصفه، وقال:

«ولكنّك لست عادية، فالمرأة العادية لا تسافر نصف العالم لكي تعمل، قد تفعل ذلك لكي تتزوج، لا لكي تتولىّ مهمة شاقة لتدوين مذكّرات بالاختزال والضرب على آلة كاتبة، وأنت طويلة القامة بالنسبة إلى النساء، وأستطيع أن أقدّر ذلك من صوتك عندما تقفين على مقربة مني... ولك جسم نحيل جداً».

وهتفت تقول:

«ولكن كيف أمكنك أن تعرف ذلك؟»

«من شكل يدك النحيلة والأصابع الرفيعة لشخص غير بدين، أما لونك فما زال سراً، ولكن دعيني أخمّن، إنّ لون عينيك أزرق... أليس كذلك؟»

قالت وهي تبتسم ابتسامة قصيرة:

«كلاّ... إنهما عسليتان».

«عجيب... ان المرء يربط دائماً الأشخاص الخجولين بالعيون الزرقاء، ولا أدري لماذا؟»

«لون البحر أزرق وكتوم للأسرار».

«وهل أنت كتوم؟ وأرجو أن تسمحي لي أن أضيف عند هذه النقطة أن لك لقباً جذاباً غير عادي، ماذا يعني حرف م في اسمك الأول؟ أرجو ألاّ يكون مارجري الذي يذكّرني بنوع من منتجات البقالة يوضع على الشطائر في مقاصف المستشفى».

«أرجو أن لاّ يكون طموحاً بالنسبة الى شخص مثلي... وسوف تبتسم على الأرجح ».

«إنّ الأبتسام شيء طيّب دائماً... ولكن هل تعتبرين نفسك غير طموحة؟ إنّ أغلبية النساء واثقات جداً من أنوثتهن القاتلة».

«يبدو أنك تسخر من النساء يا سيدي».

«في بعض الأحيان يتصدّى رجل لامرأة، تركّز سحرها بحيث تصبح قادرة على أكثر أنواع السلوك شيطانية، إذا لم تؤثر تعاويذها وسحرها عليه، وأنا أعمى لأنني

محصّن ضدّ مثل هذه الساحرة».

«كلا... كلا».

ولم يستطع أن يرى أن عيني ميرلين قد امتلأتا هلعاً... الهلع التام من أنه يؤمن بمثل هذا الشيء، وأرادت أن تحتج بأن هذا غير حقيقي، ولكن اعلان براءتها من هذا النوع الشيطاني سوف يكشف شخصيتها، واستطاعت أن ترى من وجهه أنه سيكون قاسياً جداً في التعامل معها... لقد سيطر الألم والرعب الأعمى على أعماقه الى حدّ أنه لن يكون ممكناً أن يغفر للمرأة التي يظنّ أنها على غرار دليلة، والتي سلبته بصره الثمين وقدرته على شفاء الناس... وهو مثل شمشون، انهارت أعمدة هيكله الشاهقة عند قدميه، ونسفت قوة مواهبه .

قال، وقد أحسّ أنّه صدمها:

«الحقيقة دائماً كئيبة، ومن ثم قدّمي إليّ الجانب الأخف من قناع جانوس الذي يناسبنا جميعاً، اجعليني أبتسم!»

«لقد عمدت باسم ميرلين، تيمناً بالطائر الذي يحمل هذا الاسم، وليس الساحرة.»

ومدّت يدها الى إناء الشاي قائلة:

«هل أصب لك قدحاً آخر من الشاي؟»

«أرجوك».

ومدّ يده لتناول قدحه في نفس الوقت الذي قدمته فيه فاصطدمت أصابعها فأمسك يدها قائلاً:

«انك تشعرين بالبرد يا آنسة ليكسايد، التي سميت ميرلين على اسم الصقر وليس اسم عرّافة. انك لست معتادة على مخدوم يتحدّث مثلما أفعل عن الساحرات والشياطين أليس كذلك؟ إنّ الرجال العميان يصبحون انطوائيين، وتتخذ الحياة صوراً مختلفة بالنسبة إليهم، وسوف تعتادين عليّ، واذا لم تفعلي فهناك دائماً لون لكي ينقلك بالهيليكوبتر في أي حال تناولي قدحاً آخر من الشاي ثم اصعدي الى أعلى لفتح حقائبك، اذ أنك بعد أن تجعلي الغرفة تبدو أشبه

بالبيت، سوف تبدأين بالاسترخاء».

وبينا كانت ميرلين تعطي بول قدح الشاي، عاشت مرة أخرى اللحظة التي قدمت له فيها حنجور غسل العين، فأحسّت برعدة تسري في أوصالها.

انّ كل ساعة وكل يوم معه سيكون جَحيماً... فقد تحوّلت عبادتها القديمة للبطل الى شيء آخر.. انها تعرف أنها تحب الرجل بكل ذرة في كيانها.

كانت لا تزال تحسّ بلمسته، ووضعت اليد التي أمسك بها على وجنتها، لقد قال إنها تشعر ببرودة، ولم يخامره أي شك في أن هناكَ لهيباً يشتعل في أعماق قلبها!

٣ ـ واقع أشبه بالحلم

أمواج البحر تتكسرّ على الشاطىء الأملس كالزئبق، فتهز الحصى والأصداف الصغيرة والكائنات البحرية الضئيلة في البرك الصخرية، بينا يصنع زبد الموج قوس قزح عندما تتخلل أشعة الشمس الضباب الرقيق.

وقفت ميرلين وقد رفعت بصرها إلى أعلى نحو غلام تسلّق شجرة جوز هند مائلة، وقد تعلقت قدماه الصلبتان بأطراف جذع الشجرة الطويل وأخذ يقتطع بسكينة ثمرة جوز خضراء ضخمة.

وراحت ميرلين تهزّ قدميها العاريتين فوق الرمال الدافئة، ثم غرست أسنانها في شريحة من الأناناس. كانت تشعر كأنها طفلة تلهو في كسل، واستطاعت أن تستسلم برهة لسحر الجزيرة.

ارتدت ميرلين بنطلوناً ضيقاً يرتفع إلى الركبتين وقميصاً من قماش خفيف وتركت شعرها ينسدل في حرية حتى كتفيها، بينا حفيف أوراق النخيل يصل إلى أذنيها مع صوت سقوط ثمرة جوز على الشاطىء بقوة، وبعد لحظات كان راماي قد تبعها وقال مبتسماً:

«يمكنك أكل لب ثمار الجوز الصغيرة في الأفطار كأنه بيضة مسلوقة، والسيد مولع جداً به، هل تحبينه أنت أيضاً؟»

«ولم لا؟»

وابتسمت في تردد... فهذا الخادم يستطيع أن يتسبّب في القضاء عليها لو أن لسانه زلّ أمام سيده ليقول أنها ليست السيدة العانس التي يتصوّر بول أنها تعمل عنده.

«إننا نقول أنه عندما تكون ثمرة الجوز خضراء، فإنّ نكهتها تكون حلوة مثل المرأة!»

«حقاً؟»

وأرسل الفتى نظرة سريعة على بنطلونها وقميصها، ثم استقرت نظرته على شعرها الطويل، ثم قال:

«لماذا تدّعين أنك عجوز يا سيدتي؟»

لقد نطق راماي أخيراً بما كان يكمن دائماً في عينيه عندما يقوم بخدمتها هي و بول على المائدة، أو يحضر المشروبات الباردة إلى الخلوة التي يعملان فيها، حيث تجلس هي أمام المكتب الصيني الجميل بأدراجه العديدة المصقولة، وبول يذرع السجادة الصينية التي تكسو أرضية الغرفة من الجدار إلى الجدار.

وقالت تصحح حديثه:

«لست عجوزاً يا راماي، بل النوع الذي يرغب فيه السيد كسكرتيرة، ولا ضرر من ذلك، وأنا في حاجة للعمل للحصول على أجري كما تفعل أنت، وإذا عرف أنني أصغر سناً مما يعتقد فسوف يفصلني وأصبح عاطلة عن العمل وأضطر للبحث عن وظيفة لن تكون لطيفة كهذه.»

«لماذا يريد السيد امرأة في سن أمه في حين أنه يستطيع أن يجد سيدة شابة؟»

وأصبحت ابتسامة راماي وقحة وهو يقول:

«إن السيد بول ما زال رجلاً، حتى وإن لم يكن في استطاعته الرؤية... إنه رجل يجعل قلبك يخفق بسرعة».

فقالت بلهجة حادة:

«كفى يا راماي! يجب ألاّ تقول أشياء يمكن أن تسبب أذى».

«سيكون هناك ضرر كثير لو عرف بنفسه أنك تزعمين أنك عجوز».

«لن يعرف إلاّ إذا نقلت أنت إليه حكاياتك، هل تريد إيقاعي في متاعب؟»

«كلا يا سيدتي. لقد أصبح المنزل جميلاً منذ حضورك... بالزهور في الأواني، والموسيقى التي تعزفينها على البيانو الكبير، ولم يعد السيد بول يتجوّل كثيراً، كالسابق، وفي بعض الأحيان يسبح ليلاً عندما تكون أسماك القرش الكبيرة هناك.»

وأشار بيده نحو البحر الذي يبدو في تلك اللحظة ثائراً متألقاً يخفي في طياته خطر تلك الأسماك ذات الأسنان الساحقة التي تستطيع أن تنتزع يداً أو ساقاً في ثوان قليلة، وسرت الرعشة في أوصال ميرلين وهي تتخيّل بول يسبح ببصره الضائع في المحيط المظلم، مدركاً للخطر ولكنّه لا يردعه، وكأنه لا يبالي بما إذا كان القرش المفترس يمكن أن يسحبه إلى أسفل الظلام التام.

وقالت:

«إذن فسوف تحافظ على سرّي يا راماي؟ وستترك السيد بول مستمراً في اعتقاده الذي لا يسبب له أي ضرر؟»

فقال راماي وهو يغمز لها بعينيه وكأنه يشترك معها في مؤامرة:

«إننا نقول إن تحطيم الوهم أشبه بتمزيق جناحي فراشة. ومن الخير للسيد أن تكون هناك امرأة في بيته، حتى لو ظنّ أنها امرأة عجفاء، ذات شعر أشيب، بدلاً من فتاة رقيقة البشرة ذات شعر أشبه بصدفة السلحفاة. إنّ الأشخاص البيض ذوي أطوار غريبة في مثل تلك الأمور، أما رجل الجزيرة فإنه سرعان ما يلمس ويكتشف الحقيقة.»

واحمرّ وجه ميرلين في غضب قائلة:

«أنت شيطان صغير، أليس كذلك؟»

ورغم ذلك أحست بابتهاج عجيب، لم يسبق أن قال لها أحد مثل تلك الأشياء الوقحة اللطيفة. وقال راماي وقد لمعت أسنانه البيضاء وسط بشرته السمراء:

«ولكن السيدات يحببنني، والآن سآخذ ثهار الجوز إلى المنزل لطعام النبيذ.. هل أنت قادمة؟»

«بعد قليل...أريد الوقوف هنا لاستنشاق هواء البحر قبل أن تشتد حرارة الشمس».

وانطلق الفتى تاركاً ميرلين بمفردها على الشاطىء، وقدماها البيضاوان تبتلان بالرذاذ الذي ينبعث من الأمواج وهي ترتطم بالرمال، ثم تنحسر في نعومة عائدة إلى البحر... يا له من مكان... وكم هو مؤلم أن بول لا يستطيع أن يرى الألوان التي تنبض بالحياة، وتنهدت... ولكنها كانت مسرورة لأنها توصلت إلى تفاهم مع راماي، إذ لم يكن في استطاعتها أن تتحمّل فكرة إبعادها عن الجزيرة... وعن رؤية بول مرة أخرى، أو العمل معه في الخلوة وهي تصغي إلى ذلك الصوت العميق واثق النبرات، وهو يملي المذكرات التي تقوم بكتابتها بعد ذلك على الآلة الكاتبة، ثم تقرأها عليه لاجراء تصحيحات على ما كتب، كان هذا هو كل ما تناله منه، وهي تتعلّق به كما تتعلق نجمة البحر بالصخرة، وقد تفتّح قلبها الجائع كما تتفتّح الزهرة في الشمس.

وانحنت لتلتقط قطعة من المرجان الأحمر الداكن وراحت تمر بأصابعها فوق ثقوبها وأغلقت عينيها محاولة أن تتخيل كيف يشعر المرء عندما يعتمد على اللمس والرائحة والصوت. إنّ صوتها يستطيع أن يجعل عينيه تتجهان نحو وجهها، أما فيما عدا ذلك فقد كانت ملامحها بلا أي شكل، وعليه أن يصنع لها قناعاً من خياله.

ولما كان يعتقد أنها عانس وحيدة لم يمسها أحد، فإن صورتها في ذهنه هي على الأرجح صورة وجه عادي غير مثير، وشعر أشيب ينسحب إلى الوراء عن حاجبين تملأهما التجاعيد، إنّ سلامتها تكمن في تلك الصورة التي يرسمها لها، ولكنها بشر... ولم تستطع أن تكبت بسمة حزينة، وهي تفكر فيما قاله راماي عن بشرتها وشعرها، وأن رجل الجزيرة سيعرف الحقيقة بسرعة عندما يلمسها.

إن بول إذا لمسها فإن هذه الأصابع القوية مرهفة الحس وهي تربت على

بشرتها سوف تكتشف نعومتها، وأطلقت زفرة قصيرة، وأحست بالألم الحلو يسري في عظامها، إنّ في الحب من العذاب بقدر ما فيه من المتعة.! ولكنه بالنسبة إليها كان يحمل من الخطر مثلما يحمل من النشوة خلال تلك الأمسيات التي كانت فيها وحدها مع بول، وأصابعها على البيانو تعزف تلك الأغنيات التي تتذكرها من النوتات الموسيقية التي كانت أمها تحتفظ بها من سنوات الحرب، بينما يجلس هو في ثيابه البيضاء يدخن سيكارة بجوار النافذة التي تندفع منها فراشات الليل يجذبها المصباح الموجود فوق البيانو.

لقد أصبحت شخصاً يعتمد عليه... لم يقل ذلك، ولكنها أحست به، وهو يحب تلك الأغنيات القديمة العاطفية، ولا يدّعي أنه كان يريد موسيقى شوبان أو مقطوعات بيتهوفن الحزينة، وقد سعدت ميرلين بذلك، إذ أنها تعلمت العزف من أمها، ولم تكن المقطوعات الكلاسيكية بين ما تحتفظ به من مقطوعات.

كانت تسائل نفسها. ماذا تفعل بكل هذا الحب الذي يتجمع في داخلها، ويبدو أنه لا وسيلة للافصاح عنه إلاّ بمجرد كونها هنا... حيث يوجد بول؟

وماذا تفعل حيال الكراهية إذا وجدت نفسها فجأة تحت رحمتها وهي تبدو بصورة قاتلة في عينيه الضاريتين وفي اللهجة القاطعة المعذبة في صوته، وقسوة هاتين اليدين اللتين رأتهما يوماً تتحسسان سلحفاة وليدة برقة بالغة؟

ووقفت ميرلين ساكنة بلا حراك وهي ترقب القوارب الخفيفة بأشرعتها الملونة وهي تنطلق للصيد، وقد رسم على مقدمتها شعار سيد الأفاعي، ناجا، الذي يجلس على سدة من الياقوت... إنها جزيرة الخرافات والسحر الرقيق، حيث تحمل النساء أطفالهن الرضع على أكتافهن الرشيقة. والنساء هنا يقمن بأكثر أعمال الزراعة، الأرز، والأناناس والبطاطا، وهن مخلوقات جميلة ذوات بشرة سمراء بلون الذهب، وحواجب كجناح العصفور فوق عيون سوداء مائلة لها إغراء لا بدُّ أن بول سوف يحس به لو أنه رآها.

لقد وعدها أنه سوف يأخذها عندما يقيم القرويون في المرة القادمة حفلاً راقصاً في الهيكل لكي ترى الراقصات الجميلات، والرجال الذين يضعون أقنعة مرعبة في تمثيل صامت لبعض الأساطير الأندونيسية القديمة.

وساءلت نفسها، إلى متى يمكن أن يستمر الحلم قبل أن تحطم الحقيقة هذه النوبة وتوقظها؟ إن وجودها هنا في جزيرة بولاو ـ أنداه أشبه بالحلم ولكنها كانت تعرف مدى قبضتها الهشة على هذا الحلم، وأن اليقظة منه ستكون رهيبة لا يمكنها تحملها، حتى في أفكارها... إنّ بول عندما يعرفها أخيراً وراء القناع المطيع، لامرأة عانس والذي وضعه خياله على وجهها، سوف يشعر بغضب مرير لهذا الخداع، ويستيقظ النمر الهاجع... ويزأر!

واستدارت بسرعة، وهرعت نحو الدرجات الصخرية، هاربة من أفكارها بقدميها الحافيتين، وقد نسيت صندلها أسفل شجرة نخيل، وعبرت الجسر الممتد فوق وادي الشاي بلا وعي تقريباً، وسارت تحت أقواس أشجار التين، وسط أغصان الزهور البرية.

كان بول يقف في الشرفة بين دعامات النخيل وهو يرتدي بنطلوناً يميل لونه إلى الأصفرار، وقميص حريري بني اللون... وبدأ أنه لم يشعر بوجودها حتى ألقت إليه بتحية الصباح، واستدار لدى سماعه صوتها، وبدا كأن عينيه وجدت وجهها كما يفعل دائماً، فأحسّت بطعنة خوف... الخوف من أن يراها كما تراه هي، كان يبدو في هذا الصباح، بصفة خاصة، كأنه ليس أعمى، لم يهمل شأن جسمه قط بل كان يبدو أكثر صلابة وقوة مما كان في انكلترا، وقد لفحت شمس الجزيرة بشرته.

وهبّت نسمة خفيفة هزّت دوارة الريح... وقال بجبين مقطب:

«لم أسمعك قادمة».

«إني حافية القدمين».

«يا لها من حماقة! هل كنت على الشاطىء هكذا؟»

«كان معي صندل ولكن نسيت أين وضعته».

«من الممكن أن تلتقط أصابع قدميك ديدان البراغيث، أو الأشواك الملوثة لقنفذ البحر، كنت أعتقد أن لديك من الأدراك ما يمنعك من التجول على الرمال كفتاة حمقاء!»

واشتدت قبضة يديها على حاجز الشرفة لدى سماعها تلك الكلمات وقالت:

«إن الرمال بيضاء ودافئة، وأهل الجزيرة يسيرون حفاة الأقدام».

«لقد تكيّفت أقدامهم مع المكان... ولكن حتى هم تتسلّل الديدان تحت جلودهم، واستخراجها عملية مؤلمة، فيقوم لون أو واحد من الغلمان باستخراج هذه الأشياء إذا كانت قد دخلت قدميك، فأنت تعرفين أن أيامي في عمليات الجراحة قد انتهت!»

كانت يداه تمسكان بثمرة يوسفي، وفجأة ضغط بأصابعه عليها بشدة فسحق الثمرة وسال عصيرها على جلده، فقذف الفاكهة من حاجز الشرفة في اتجاه الشجرة صائحاً:

«عليك اللعنة، كل يوم أقول لنفسي أنني لن أسمح لها بالتسلل إلى مخي كالدودة أما اليوم، فقد لدغتني الدودة كما ترين».

وراقبته ميرلين وهو يخرج منديلاً من جيبه ويجفف يديه. ما أقوى هاتين اليدين، وفقد السيطرة على نفسه بصوت مرتفع كالصراخ.

«أعتقد أن الرياح سوف تشتد، راماي هلاّ جئت هنا فوراً!»

كان الفتى يعتقد بالتأكيد أن السيد يريد الأفطار بصبر نافد إذ أنه وصل يحمل صينية محمّلة بالطعام وهو يعتذر، ولكن بول دفعه جانباً وقال:

«هل أسمع وأشم رياحاً شديدة؟»

فوضع راماي الصينية ونظر نحو الجانب الأيسر من المنزل حيث تتكاثف الأشجار وتبدأ الغابة وقال:

«إن سعف النخيل لا يهدأ يا سيدي، وسنعرف بعد ساعة أو نحو ذلك إذا كان

الشيطان قد بدأ يدق طبوله في الغابة».

فقال بول متسائلاً وقد رفع وجهه وكأنه يختبر الرياح على بشرته:

«أهو إعصار؟»

«قد يكون كذلك يا سيدي في مثل هذا الوقت من العام.»

فهتف بول وهو يدور بعينيه حوله في ارتباك مفاجىء:

«يا للعنة... إنه الوقت الذي أبدأ الاحساس فيه كأنني كتلة خشب لا نفع منه ساكنة... قد يكون ذلك تهديداً بعاصفة فقط ولكن اذهب وأبحث على لو وأطلب منه الاتصال لاسلكيا باليابسة، فمن الأفضل أن نستعد لأسوأ الأمور».

«أجل يا سيدي».

وأومأ برأسه، وكان بول يستطيع رؤيته... وأضاف:

«إن إفطارك على المائدة وستقوم السيدة بصب القهوة».

«أجل أنها ستتكفّل بذلك، هيا أسرع وابحث عن لون، وإذا كانت الأخبا سيئة، فاتجه نحو القرية وحذر الناس هناك، إنهم يعرفون ماذا يفعلون أفضل مني، ولكن إذا حصلنا على تأكيد باللاسلكي مسبقاً فسوف يساعدنا ذلك».

وانطلق الفتى هابطاً درجات الشرفة، وهرع للبحث عن لون الذي كا خلال الأسابيع الماضية يساعد في الأشراف على وادي الشاي، نظراً لأن ابن ع بول لن يعود قبل اسبوعين، وكانت ميرلين تخشى عودته... فهو على عكس لون لم يكن أندونيسياً يحب إشباع فضوله، أو مثل رامامي الذي يمكر اقناعه بالأشتراك في لعبة التظاهر بشيء ما، بل كان هولندياً مثل بول، يريد أ يعرف كل شيء عنها، أو بقدر ما تود أن تذكره له. وإذا كان هناك أحد سيكتشف لبول أنها فتاة في عقدها الثاني وليست امرأة في العقد الرابع، فإن ابن عمه ه أكثر المرشحين احتمالاً لأن يفعل ذلك.

وقال بول وهو يشير في اتجاه المائدة:

«هيا نتناول افطارنا... أرجو ألاّ نكون قد أثرنا أعصابك بحديثنا عن الأعصار

فلا يساورنك القلق، هذا البيت بني لمقاومة أقوى الرياح، وسوف يحصر خدم المنزل عائلاتهم هنا أو يأخذونهم إلى الوادي».

فقالت ميرلين وهي ترفع إناء القهوة وتصب قدحين له ولها:

«أعتقد أن ذلك سيكون أكثر أماناً يا سيدي».

«أجل. إنّ الوادي آمن، إذا كان ذلك مجرّد إعصار شديد... أما إذا ألقى البحر موجة مدّ، فلن يكون الأمر بهذه البساطة، سنبقى هنا في المنزل... فهل لديك مانع؟»

فقالت وهي تقدّم له حلوى جوز الهند اللذيذة، وبعدها المحار المقلي والأرز:

«سأفعل ما تراه أفضل شيء، وستكون تجربة جديدة بالنسبة إليّ أن أرى إعصاراً».

«من الأصوب أن تقولي إنك تسمعينه يا سيدتي، فالاعصار في ذروته يكون صوته أشبه بقطار سريع يندفع خلال نفق... نفق طويل يجعل الضوضاء تبدو وكأنها لا نهاية لها... أتشعرين بالخوف؟»

فقالت معترفة:

«إنني أشعر بعصبية، ولكني لست خائفة».

«الآن تعرفين لماذا كنت أرغب في وجود امرأة متعقّلة هنا وليست فتاة عاطفية الخيال، إن الجزر ليست دائماً أماكن شاعرية، كما تقول عنها كتيبات السياحة، ولا أتخيّل فتاة صغيرة مذعورة على يديّ إذا هبّ إعصار علينا، وبدأت الرياح تقتلع الأشجار من الأرض وتفتح أبواب الجحيم. ولست مستعداً لكي أقوم بدور فارس شارد، وهو ما تتوقعه الفتيات ذوات الخيال العاطفي. إنك امرأة تجاوزت كل هذه الأمور أليس كذلك؟»

فقالت ميرلين وهي ترمقه بنظرة مذهولة:

«بلا شك».

كان من السهل إلى حدّ محزن خداع رجل أعمى، باتخاذ الأسلوب الرزين لسيدة أكبر سناً، وطريقة أكثر تأنياً في السير، كما أن تلك الأغنيات القديمة التي

تعزفها له، ساعدت إلى حدّ كبير في إثبات أنها امرأة لم تؤثر فيها الاتجاهات الحديثة للموسيقى الشعبية، ولكن عندما يعود ابن عمه من هولندا! يا إلهي. إنها لا تريد أن تفكر في ذلك... لقد مضت الآن عدّة أسابيع وهما يعملان معاً، وسوف يتأخر العمل في الكتاب لو أنه فصلها غضباً وبحث عن سكرتيرة أخرى.

وقال:

«لقد أصبحت هادئة جداً، بينما تزداد أوراق الأشجار اهتزازاً وخشخشة، أم أن ركبتيك هما اللتان تصطكان؟»

فابتسمت قائلة:

«لن أزعم أنني لا أشعر بالعصبية، لكنه بيت قوي البناء، وأنا على استعداد لمواجهة ما يدّخره القدر لي».

«أنت تؤمنين بالقدر إذن؟ هل تعتقدين أن ما كتب لك سوف تلقينه؟ إنها فكرة أجد من الصعب ابتلاعها».

«ما هي؟»

«لا أعتقد أنه كان مقدراً لي أن أصل إلى هذه الحال... وأن أنقطع عن عمل حياتي، عاجزاً عن أداء ما كنت أفعله على أفضل وجه، وكل ذلك بسبب ممرضة صغيرة لعينة، ظنّت أنني يجب أن أتعلّم درساً لأنني لم ألاحظها إلى حدّ كاف».

وأصبح وجه ميرلين صورة مجسدة للألم، وقالت:

«هل تعتقد ذلك حقاً؟ إنني واثقة من أنها كانت حادثة، فليس هناك أحد... أو أية امرأة يمكن أن تكون بهذه القسوة».

فقال باقتضاب:

«أنك لم تكوني هناك! فكيف تعرفين؟ إنك امرأة ابتعدت عن عقدة العواطف التي ينغمس فيها أناس آخرون، لقد أردت أن أدمّر تلك المرأة كما دمّرت عيني، وكان هذا من الأسباب التي جعلتني أقطع نصف العالم لأعيش هنا، وأحاول النسيان، وهو أمر ليس سهلاً. فأنا لست القديس بول».

ونهض على قدميه وهو يتحدث ثم يتجه نحو حاجز الشرفة، حيث وقف مرهفاً السمع، وتقارب حاجباه وهو يخرج سيكاراً و يشعله... وقال:

«كان يجب أن يعود راماي بسرعة، يؤسفني إذا كانت حقائق الحياة تبدو لك قاسية، ولكن لم تكن لك صلات كثيرة مع الرجال، ولا أقلل من شأنك بذلك، ولكني أعتقد حقاً أنه أمر يدعو للثناء أن تكون المرأة مرضية وليست امرأة مشاكسة فقط لتعذيب الآخرين، إن لديك قدراً كبيراً من الرزانة ولعلك لا تدركين انك متواضعة أيضاً».

فقالت ميرلين وقد أحمرّ وجهها:

«إنني لست قديسة أيضاً يا سيدي».

كانت تشعر ببعض السرور والهلع لما قال، وتشك في أنه صوّر لها في خياله صورة يمكن أن ينسفها ابن عمه نسفاً ببضع كلمات منتقاة، واتجهت نحوه بسرعة، وتجرأت على لمس ساعده بخفة وقالت:

«ماذا يحدث يا سيدي لو أن ابن عمك لم يشعر بميل نحوي؟ ماذا تفعل إذا رسم لك صورة لي تختلف عن تلك التي في ذهنك؟ إنني أحب عملي هنا، ولا أودّ ابعادي عنه».

فقال وهو يتجه بعينيه إلى حيث استقرت يدها على بشرته:

«سيدتي العزيزة، هل تتصورين أن هندريك يملي أوامره عليّ؟ لقد كونت استنتاجاتي عنك ولن يستطيع تغييرها، إنك سكرتيرة جيدة، ونحن متفاهمان أليس كذلك؟»

«أجل».

«لماذا إذن يعترض هندريك على وجودك؟ إنك تقومين بعملك بطريقة ترضيني، وتصاحبينني في الأمسيات».

«سوف يرغب ابن عمك في أن يفعل ذلك عندما يعود؟»

فقال بول في ابتسامة ساخرة:

«نادراً ما يفعل. إن له صلات بامرأة من القرية، وهو أمر يحدث عندما يعمل الرجال بعيداً عن وطنهم، والوحدة يمكن أن تحطم روح أصلب الرجال. وهندريك ليس صلباً. أصبح مدمناً للمناطق الأستوائية ولا يستطيع العمل في أي مكان آخر، وليس من شأني إذا رغب في تخفيف وحدته والتمتع بوقت فراغه مع فتاة جذابة من الجزيرة، طالما كان والداها راضيين عن معاملته الطيبة لها. هل صدمك ذلك؟»

«كلا... إنني لست ضيّقة التفكير».

وأحست ميرلين بارتياح لمعرفة أن هندريك فان سيتان ليس من النوع المتزمت الذي يتمسّك بالمبادىء، وقد يمكنها أن تقنعه بمواصلة خداعها طالما أنه لن يؤذي بول.

وقال بول متمتماً وقد سلّط نظراته العمياء المربكة على وجهها وكأنه يستطيع أن يقرأ ملامحها ويرى رد فعل سؤاله عليها:

«هل تتساءلين؟ لماذا لم أخضع لسحر إحدى فتيات الجزيرة السمراوات؟»

وأجابت قائلة:

«إنني أرى فيك رجلاً قوي الارادة جداً، ولا أعتقد أنك تستسلم قط لرغباتك إلا إذا كان لها معنى ما عندك».

«كأن أكون مدفوعاً بالحب؟ هل هذا ما تقصدين؟»

فقالت بقوة:

«أجل... لا أعتقد أن لديك كثيراً من الوقت لتجارب فارغة وتفضّل تلك التي تثريك».

«قد يكون هذا صحيحاً عندما كان لدي الأشباع والأثراء من عملي... أما الآن فإنني أشبه بمنزل بلا نوافذ. أسيطر على أرض خالية وسوف أنهار تدريجياً وأصبح أنقاضاً. وعندئذ أتحوّل إلى أذرع السلوى ولم لا؟ إنني أتخيّل فتيات الجزر ذوات أمزجة حلوة وملمس حلو، وهذا كل ما يريده أو يحتاجه رجل مثلي... عاطفة ليّنة

من شخص سوف يتسلّل بهدوء عندما يشعر النمر وكأنه يزأر نحو القمر الذي لا يستطيع أن يراه».

وسألته محاولة التحدّث بخفة:

«وهل تزأر النمور؟»

«إذا كانت الشوكة قد دخلت جسم النمر بعمق، ولقد أمضيت في الجزيرة وقتاً يكفي لان تسمعي الأسم الذي يطلقه أهل الجزيرة عليّ وهو هاريماو ومعناه النمر».

فقالت مصحّحة قوله:

«سانج هاريماو. ملك النمور».

كانت ابتسامته قصيرة لاذعة، وقال:

«إن له صلة بإحدى أساطيرهم، وهي أنّ كل واحد منا كان في وقت ما عضواً في المجموعة الحيوانية، وعندما نتخذ شكل البشر فإن بعض طباعنا السابقة تبقى معنا. وبعد أن جئت إلى بولاو ـ إنداه سرعان ما أخذت أنطلق إلى الغابة ليلاً، وأعرف طريقي ببراعة. نظراً لزيادة مقدرتي على السمع. واحساسي بوجود مخلوقات أخرى. والنمور الحقيقية تجوس ليلاً طلباً للطعام... وفي البداية قرر أبناء الجزيرة أنني مخبول. ثم بدأوا تدريجياً يلمحّون إلى أنّ لي قرابة بالنمور الصفراء الضخمة. ولهذا فإنني لا أخاف الذهاب إلى حيث تكون. والحقيقة لم أكن أعبأ كثيراً لو أنها ذات ليلة جعلت مني طعاماً لعشائها. إنك تمسكين أنفاسك بشدّة بالغة يا سيدتي، ولكن امرأة مثلك تؤيد الصدق وتكره الخداع أليس كذلك؟»

ووضعت ميرلين يدها على حنجرتها وقد أحسّت لحظة بالأختناق بما ارتكبته من خداع، وأحس هو بسحب يدها عن ذراعه. فأطرق برأسه ورأت حاجبيه يتقاربان، وسألها:

«هل لمست وتراً حساساً؟ ألديك سرّ صغير تغلقين عليه قلبك يجعلك تشعرين بعقدة الذنب؟»

«ألا يحتفظ كل منا ببعض العظام في دولاب ضميره؟ إنني عانس عجوز ولكنني لست بالضرورة راهبة تقية».

فغمغم قائلاً:

«إنه سرّ يتعلّق برجل بطبيعة الحال».

قالت بصعوبة:

«هذا هو الشيء المفترض دائماً».

«إنه أكثرها قرباً للمنطق، إلاّ إذا كنت قد سرقت حصالة نقود ذات مرّة».

وأحسّت ميرلين وهي تراه يمد يده في اتجاهها، وكأن الفضول قد جعله فجأة يريد أن يلمس الشيء الذي أثار اهتمامه... وانسحبت بعيداً في حذر مستندة بظهرها إلى حاجز الشرفة. كانت تدرك جيداً أنها ترتدي قميصاً خفيفاً، وبرغم أن جسمها كان نحيلاً، إلاّ أن أصابعه الحساسة يمكن أن تكتشف على الفور أن لها جسماً شاباً لا يزال قوياً وطرياً. حذّرها لون من ذلك، إنّ الرجال الذين لا يبصرون يستطيعون معرفة الكثير من الصوت، ثم يأتي اليوم الذي يريدون فيه أن يوسعوا نطاق بحثهم.

وقال بعد تفكير:

«أستطيع أن أسمع ابتعادك عني... هل تخافين أن ألمسك؟ عنيت شيئاً غير شخصي تماماً، فلا تتخيلي أنني أريد أخذ حريتي معك».

فانكمشت ميرلين ووقفت بلا حراك وهي تقول:

«لم أتخيل ذلك».

كانت تتصرّف فعلاً كعانس حريصة تجاوزت سن الأتصال الحسي وكان من الأفضل لها أن تتصرف بهذه الصورة بدلاً من أن تواجه الحقيقة، لكنها برغم خوفها من كشف أمرها إلاّ أنها تتوق إلى أن يكتشف أنها فتاة في الحادية والعشرين من عمرها تستطيع أن تمنحه العزاء الحلو الذي لا بد أنه يظمأ إليه في الظلام العميق لأيامه ولياليه...

إنه أعمى، ولكن ذهنه حاداً. متيقظاً ينبض بالحياة.. وسوف يخمّن من تكون.

وقال بصوت ناعم:

«إنك خائفة إلى حد بعيد!»

وتوترت خياشيمه وكأنه يشم فعلاً رائحة خوفها... ومضى يقول:

«يا سيدتي العزيزة، لم يمض عليّ وقت طويل جداً بدون امرأة، حتى تصيبني لوثة وأفترسك بمجرد وضع يدي على جسمك، أريد فقط أن أتعرّف عليك بطريقة بريل... فقد أعتقدت أننا يجب أن نعرف بعضنا بعضاً بصورة كافية».

كان المأزق مربكاً. فلم تكن ميرلين تجرؤ على أن تترك يديه تتصلان بوجهها أو جسمها، فإنّ أصابعه ذات الحساسية المرهفة، كانت تعرف أنسجة الجلد وتكوين العظام قبل أن يصاب بالعمى، ولو لمسها الآن فسيعرف على الفور أنها ليست كما تزعم، امرأة تجاوزت منتصف العمر!

وهزّ كتفيه، ثم لوى شفته وقو يقول:

«ما الذي جعلك تبقين بلا زواج؟ ألم ترغبي بتأسيس أسرة؟»

هذا ما افترضه إذن، إنها امرأة باردة العواطف تنكمش من الأتصال بأي رجل! حسناً... لا ضرر إذا اعتبرها من هذا النوع. ولكنه دس يديه في جيبي بنطلونه بطريقة ساخرة، حتى تطمئن إلى أنه لا يهاجمها.

وقالت رداً على سؤاله:

«أعتقد أن أغلب النساء يردن الزواج».

«إذن فأنت لم تقابلي الرجل المناسب؟»

«لست المرأة التي يبدو أن الرجال يلاحظونها».

«يقولون في هذا الجزء من العالم أن لكل رجل روحاً في شكل امرأة، وأنه يظل بلا روح حتى تظهر، وربما حدث ذلك يوماً.»

«كلا!»

«يبدو أنك واثقة تماماً... أم أنك خائفة أساساً من فكرة الزواج وكل ما تتضمنه؟»

«إنني قانعة بما عندي».

«إن المرتفعات لا يمكن أن تبلغها امرأة بمفردها».

«هذا ينطبق أيضاً على الرجل بالتأكيد. إذا كنت تتكلّم في الجانب العاطفي وليس المادي فقط».

«أجل. فالأمر محزن حقاً بالنسبة إلى الرجل أيضاً».

«هل أنت عاطفي في أعماقك يا سيدي؟»

«الخيال العاطفي هو أن يعرف المرء أن هناك دائماً شيئاً بعيداً عن متناوله. فيجده فجأة ذات يوم. محسوساً. ملموساً مرئياً».

وتوقف عن إتمام كلامه. وأطلق تنهيدة من بين شفتيه. ثم قال:

«أجل ربما كنت عاطفياً. لأنني أدرك هذا الوجود الغريب غير المنظور ولكنه محسوس في حياتي. أنتظر أن يتشكل في صورة أمرأة أستطيع... أن أحبها».

تلك الكلمات غير متوقعة من بول. الذي يبدو دائماً متعالياً. واثقاً من نفسه. كان يريد تشكيل حياته. فيختار على مهل زوجة أنيقة باردة. تجعل منزله جميلاً. ذات ذكاء في صحبة أصدقائه الأطباء.

الحب؟ كانت الكلمة غريبة بالنسبة إلى ميرلين التي لم تستطع أن تتخيّل بول فان سيتان القوي المسيطر وهو يقع في قبضة العاطفة. بعينيه العاصفتين. وفمه الظامىء. وشعره الأشعث فوق جبهته الساخنة... كم كان حبها بريئاً في تلك الأيام... وكم هو حارّ وهو يتدفق الآن في عروقها؟

وبينما هي ترقبه. رفع عينيه الرماديتين إلى السماء. فأحست بالألم لأنه لم ير إلاّ الظلام... ولا شيء من زرقتها.

وتطلّعت هي الأخرى إلى السماء وهي ممسكة بأنفاسها. فرأت بقعاً سوداء. وبدت الشمس بلون كبريتي. وسألها بول:

«هل أظلم ضوء النهار؟»

«أجل».

ظننت ذلك... فالشمس أصبحت باردة على جلدي ولكن أشعتها تنتشر بضباب كثيف، هل أنا على صواب؟»

«أجل.... هل يعني هذا...»

«بالتأكيد... ألا يمكنك رؤية راماي؛ كان يجب أن يعود الآن لابلاغنا ماذا التقط لون باللاسلكي».

«لا أستطيع أن أراه في هذه الأنحاء... هل أخرج وأبحث عنه؟»

«أجل... إنني أشعر كأنني بلا حول ولا قوة... ما ألعن أن يعتمد المرء على غيره لكي يفعل ما كان يمكن أن يفعله بكفاءة أكثر. لعنة الله على تلك المرأة الصغيرة لما فعلته بي».

وأغلقت ميرلين عينيها وهي تشعر بطعنات أليمة، وقالت:

«سأذهب للبحث عن راماي».

وكانت على وشك الانطلاق عندما أوقفها صوت بول صائحاً:

«الحذاء... اذهبي وضعيه في قدميك قبل الذهاب إلى الوادي للبحث عن الغلام كلا... الأفضل أن تجدي لون، فراماي له والدان ومجموعة من الذرية في القرية وربما ذهب إليهم أولاً بأنباء سيئة محتملة. ابحثي عن لون».

«أجل».

وهرعت ميرلين إلى الخارج. بقع قرمزية اللون في السماء الكبريتية، والحرارة أشبه بضغط على الرأس، وامتلأت جبهتها بقطرات من العرق، بينما أخذت السحائب الضخمة تبتعد عن طريقها، وروائح أشجار الشاي وما تحمله الرياح من رائحة أشجار التوابل والغابة تنفذ إلى أنفها. في الوقت الذي كانت العاصفة تستجمع قواها، ومدّت يدها تمسك بحفنة من الأغصان، فالريح نشبت مخالبها في قميصها وجعلت شعرها ينسدل فوق عينيها، وسمعت أصوات القرود وهي تزقزق بصوت مرتفع بين نباتات الغابة.

كان الاعصار قد أخذ يزداد اقتراباً، وسرعان ما سيجتاح الجزيرة محطماً،

ومقتلعاً، ومدمراً كل ما يصادفه في طريقه.

ولكن ميرلين سعيدة لأنها ستكون مع بول، وطوّحت شعرها إلى الوراء، وألقت على الشمس الملتهبة نظرة تحد... لقد أصبحت جزءاً من هذا كله، حتى إذا مزّق قلبها إرباً.

٤ ـ علامة على الجلد

النهار أصبح مظلماً كالح السواد، يهدّد بالخطر، وعثرت ميرلين على لون وتأكدت أن الاعصار يتجه في هذا الطريق، وأصبح للرياح أنين عالي الصوت، وأوراق أشجار النخيل في حركة دائمة وهي تخفق بشدّة إلى الخلف وإلى الأمام حتى ينكسر أحد الغصون فجأة بفرقعة حادة ويتطاير بعيداً.

الاعصار قادم بلا هوادة، وطلب منها لون أن تعود على الفور إلى بيت النمر وابلاغ السيد أن أهل القرية يتجهون للاحتماء في وادي الشاي، وهم في حالة عصبية بسبب الاعصار، الذي لا يبدو بمثل هذه القوة في الوادي المنخفض... وعليها أن تسأل بول إذا كان سيهبط للوادي هو أيضاً، غير أنّ ميرلين تعرف الرد مقدماً، فهو لن يتزحزح عن المنزل، ولكن ربما يقترح عليها أن تنضم إلى أهل القرية وأطفالهم، بل ويصر على ذلك. وأعدّت ميرلين نفسها لمعركة بين الارادات. فلن يستطيع جعلها تتركه يواجه الاعصار بمفرده، إلاّ إذا قذف بها من فوق الصخور... فهو ليس مصنوعاً من حجر، وعندما تشتد العاصفة سيكون بحاجة إلى رفيق، كأي إنسان آخر.

وأجفلت من الأصوات العالية ذات الصرير، التي كانت تنبعث من أشجار النخيل، والعويل الذي يبدو محبوساً بين أوراق أشجار الموز الكبيرة وسمعت من أعماق الغابة الدقات الشيطانية التي كان راماي يتحدّث عنها، بينما أخذ المطر يهطل فوق كتلة النباتات التي كانت تشكل سقفاً صلباً فوق الشجيرات والكروم التي تشابكت أغصانها.

كانت الريح تدور في حركة جنونية عندما صعدت الدرجات إلى الشرفة. وتوقفت برهة لتلتقط أنفاسها، وفجأة أقبل خادم شاب يعدو من اتجاه المطبخ، اتجه نحوها وعيناه عينيه اللبنيتين بيده، كان توتوب الفتي يقود بول عندما يريد الذهاب إلى الشاطئ، أو الوادي، وقال لها:
«يقول السيد أنني يجب أن أذهب إلى الوادي بدونه يا سيدتي، إنه أعمى لا يرى، وسيكون الإعصار هنا، اطلبي إليه أن يأتي معي.»
وسمعت صوت بول وكأنه يترك غضبه في الهواء يقول:
«قولي له لن يذهب، إن المغرور الصغير يجرؤ على مجادلتي. لن أبرح هذا المكان، ولن أتركه هنا عندما يبدأ الإعصار فعلاً. هل أكد لون ذلك؟»
«أجل يا سيدي».
وألقت نظرة عطف على توتوب الفتي كان مخلصاً لبول. وبدا عليه الألم لخشونة سيده وقالت له:
«من الأفضل أن تفعل كما قال لك يا توتوب، إنّ أسرتك في الوادي مع كل الآخرين وأنت لا تريد أن تثير قلق أمك».
وقال بول مصراً:
«اذهب على الفور، وستأخذ السيدة معك أتسمعني؟ هيا أسرع قبل أن تبدأ الأمطار في الهطول».
وبدا العناد على الغلام الذي قال:
«طالما أذهب مع المرأة فعليك أنت أيضاً يا سيدي. أو دعني أبقى».
«عليك أن تفعل كما طلب منك يا بني، وكذلك أنت يا آنسة ليكسايد».
ووقف بول ينظر في اتجاه صوتيهما وقال:
«لن أبقى معي امرأة عنيدة وطفلاً عندما يصيبنا هذا الشيء... كونا متعقلين أنتما الاثنين. إنني أنسى كالخفاش، ولن أكون ذا فائدة لأي منكما إذا أصبتما بأذى، فطالما ما أطلبه وانطلقا وأنتما لا تزالان قادرين على هبوط هذه الدرجات

الصخرية قبل أن تطوكما الرياح»

فقالت ميراين وقد استقر أمرها على ما سوف تفعل:

«تعال يا توتوب لا فائدة من الجدل... ولا بد أن تكون مع أسرتك»

وأمسكت بيد الغلام لتبعده بسرعة عن بول القناصب ولكن الغلام حاول أن يعيدها نحو الشبح الوحيد الذي كان يقف هناك بدون أن يرى، وقال الغلام:

«سيبقى السيد بمفرده تماماً»

فقالت بسرعة:

«هيا...»

ولكن عندما بلغا الدرجات المؤدية للوادي، وازداد البرق اشتداداً، تركت يد الغلام ونادت بعض الأشخاص الآخرين لأخذه معهم إلى الوادي للانضمام إلى أسرته قائلة إنها أوامر السيد ولكنها لم تكن تنوي إطاعة هذه الأوامر، وأسرعت عائدة إلى المنزل وراحت تركض بينما شعرها يضرب بشرتها كالسوط ثم ألقت بنفسها على الدرجات المؤدية إلى الأعلى.

صاح بول وهو يقف شامخاً في عتمة المدخل وقد اتسعت خياشيمه:

«من هناك؟»

فقالت ميراين بأنفاس لاهثة:

«أنا... لقد تأكدت من هبوط توتوب إلى الوادي»

«أنت! لقد أمرتك أن تذهبي معه»

«لن يمكنك البقاء هنا بمفردك... أريد أن أبقى معك يا سيدي»

فخطا نحوها خطوة عنيفة وصاح:

«أنت تريدين؟ إنني الوحيد المسؤول هنا، ولست امرأة تافهة لم تواجه أي إعصار من قبل إنني لا أريدك... أتسمعينني؟ سوف تبكين وتئنين في كل أرجاء المكان عندما تصل الرياح إلى قوتها الكاملة والآن انطلقي ودعيني بمفردي، فما زال هناك وقت»

وردت عليه بشدّة قائلة:

«إنك لا تستطيع رؤية الصاعقة. سوف تصيبني لو خرجت إليها».

فقال وهو يحكم قبضة يده وكأنه ينوي حقاً ضربها جزاء عصيانها:

«وقد تصيبك إذا بقيت هنا. أنت حمقاء أيتها السيدة. هل تدركين ذلك؟ لو أصابك أذى فلن أستطيع أن أرى لكي أضع رباطاً عليك بطريقة صحيحة».

وهتفت قائلة:

«كف عن كل هذا الحزن على نفسك!»

وبدا عليه الذهول. وتمتم قائلاً:

«ماذا... ماذا تقولين؟»

«لقد سمعتني يا سيدي. أنت تريد أن تتولىَ الأمر،ولكنلأنك غير قادر فإنك تنفث غضبك عليّ. إن أهل القرية سيكونون في أمان مع لون. وأنا باقية معك!»

«هل تعرفين ماذا كنت أفعل بك لو كنت أبصر كالرجال الآخرين؟»

كان يبدو مكتئباً وهو يقف هناك. وقالت لنفسها. أجل إنها تعرف... سوف تراني وتعرفني. ولن تكتفي عندئذ بطردي من منزلك. بل ستقذفني منه إلى العاصفة!

وقالت:

«أعرف أنني عنيدة. ولكن هل يمكنك أن تترك شخصاً بمفرده في الاعصار بينا تهرع للاختباء في حفرة في الأرض؟ شخص لا يستطيع الابصار ليدافع عن نفسه؟ لماذا استخدمتني إذن يا سيدي!»

«يا لك من حمقاء لعينة صغيرة! حسناً... عرّضي نفسك للخطر. ولكن لا تأتي إليّ مولولة لكي أريحك عندما تنطلق الثورات الغاضبة. وسيحدث ذلك قبل مرور وقت طويل. هل هناك أية معلومات في الراديو عن ذلك؟»

«ذكر لون أن الأنباء تقول إنّ الاعصار في هذه المنطقة. ولكنه قال أيضاً انها ظواهر لا يمكن التنبؤ بها. وقد يمر في اتجاه آخر».

«لنبتهل إلى الله أن يكون الأمر كذلك، وفي أية حال فإن الرياح ستكون سيئة، والقرويون يعرفون ذلك، وقد اتخذوا احتياطات معقولة، والآن...لماذا لم تفعلي كما طلب منك؟»

«لم تكن هناك فرصة يا سيدي».

ونظرت عبر المبنى حيث كانت المياه تنهمر كالشلالات من السماء، وقالت:

«هل يمكنك سماع المطر؟»

«أجل... لا بدّ أنك مبتلة».

«بعض الشيء...»

وتحسّست قميصها ببسمة خبيثة، وكان جلدها تحته رطباً وشعرها لا يزال يقطر ماء، وقال:

«إذن فمن الأفضل أن تذهبي وتجففي نفسك، سوف أطوف بالمنزل للتأكد من أن المصاريع في مكانها. لقد أنزلت المصابيح الثقيلة من السقف قبل أن ينصرف الغلمان ووضعت الصور والتحف في مكان أمين، اذهبي إلى غرفتك وجففي نفسك».

«وهل أبقى هناك، كنوع من العقاب؟»

«لا تضيفي الوقاحة إلى العصيان الأحمق، وبعد أن تغيري ثيابك، أعدّي لنا بعض الطعام للغداء، بينما أقرر أنا أين نستطيع أن نجد ملاذاً صغيراً من الضوضاء الصاخبة عندما تقبل».

وتركته ميرلين، وشقت طريقها إلى الطابق الأعلى حيث غرفتها، وهي تشعر ببعض الارهاق في أعقاب معركة الارادات بينهما... ووقفت أمام النوافذ في غرفتها. ومن خلال المطر المنهمر، كان الرعد يدوّي فوق الوادي مرة أخرى فيضيء السماء بنيران تنذر بالشر. وازداد الظلام عمقاً حتى بدا النهار وقد تحوّل إلى ليل بهيم.

وارتعشت وهي تنزع ثيابها المبللة وأسرعت إلى الحمام الصغير الذي أعدّ في

غرفة نومها، وقفت تحت مياه الدوش الدافئة. فأخذ الرذاذ الساخن يبدد القشعريرة الباردة عن جسمها تدريجياً، ولفت جسمها في منشفة كبيرة ثم عادت إلى غرفتها. وأشعلت المصابيح ذات الزجاج البيضاوي فوق قواعد نحاسية. وما كادت تضع علبة الثقاب في مكانها حتى لفتت نظرها حركة في المرآة. فأجفلت ودارت على عقبيها لتواجه الشخص الذي يقف على عتبة غرفتها.. إنه بول! وضمت المنشفة على جسمها وكأنه يراها!

وقالت بصوت مرتعش:

«ماذا، ماذا تريد؟»

«هل كل شيء على ما يرام؟ إنني لم أقرر أن أعربد في ساعاتي القليلة الباقية على الأرض، إنك في أمان تام من لمسات رجل أعمى يا سيدتي، لقد جئت لفحص مصاريع نوافذك، هل قمت بإغلاقها؟»

«كلا»

كان جسدها كله يحس بما يشبه اللهيب داخل طيات المنشفة... وهي تراه في تلك اللحظة على عتبة بابها، خطرت ببالها فكرة مجنونة، إنه جاء بحثاً عن العزاء! ولما كانت ميرلين تحبه حباً لا حد له، فإنها لن تقاومه! ولكن رده الساخر جعلها تشعر وكأنها تحترق فوق مخروط بركاني.

وقال بول:

«كل مصراع في المنزل يجب التأكد منه، والأفضل أن أغلقها لك»

وتقدم داخل الغرفة، التي كانت على عكس غرف الطابق الأرضي، مغطاة بسجاجيد سميكة تتناثر هنا وهناك على الأرضية، وقد اشتبكت مقدمة حذاء بول بواحدة منها قبل أن تتمكن ميرلين من الصياح محذرة أياه، فسقط على الأرض بينما كانت تقفز إلى الأمام، وسقطت المنشفة عن جسمها وهي تمسك ذراعه في اللحظة التي سقط فيها بشدة على ركبتيه، وبدا على وجهه من الغضب أكثر مما يحس بألم حقيقي.

وقال:

«لا أريد أن تأتي لانقاذي».

وطوّح بإحدى يديه فاصدمت بصدرها، ورأت الصدمة السريعة التي بدت على وجهه بعد أن انتقل احساسه بها من أصابعه إلى فمه.

وأطلق صيحة باللغة الهولندية من بين شفتيه، واستطاعت أن تحس به وهو ينظر إليها رأساً، وإن لم ير بشرتها البيضاء حيث لا تزال علامة يده ظاهرة عليها.

«يجب أن تغفري لي، فلم يكن لديّ فكرة، أنك انتهيت من حمامك للتو، وقد اقتحمت الغرفة كالأعمى الأحمق... سوف أذهب».

فأمسكت بذراعه قائلة:

«كلا، ليس كذلك، لا تعتقد أنك فعلت شيئاً رهيباً... تعثرت على الرغم منك، وليست هناك أية أهمية إذا كنت بلا ثياب، أنت جراح والجسم البشري ليس سراً عليك يا سيدي، كانت سقطتك شديدة، هل أنت على ما يرام؟»

«إنني بخير، لم يكن لي أي حق في اقتحام غرفتك، لقد أحرجتك، وضربتك بيدي».

«أوه لم أكد أشعر بها».

وكان قولها غير صحيح على الأطلاق، إذ أنها لا تزال تحس بلذعة مكان يده على بشرتها... ولكن ليس من ألم الضربة، بل من شعورها بأصابعه التي لمست جسمها الناعم.

وضغطت بأسنانها على شفتها السفلى، إنها ترجو الله ألاّ يكون قد أدرك أنها ليست عجوزاً عانساً، بعد أن لمس بيده جسمها الناعم المشدود.

وقال في سخرية:

«ليست تلك لحظة مآسي. وجهيني نحو مصاريع النوافذ، ولكن ارتدي أولاً ثوبك».

وسارعت إلى ارتداء كيمونو اشترته من نساء القرية اللواتي يزركشنه باليد، ثم أمسكت يده بخفة، فتحرك معها إلى حيث المصاريع الكبيرة المصنوعة من خشب الساج، فبدأ في إغلاق المصاريع بإحكام على النوافذ التي تهزّها الرياح، بينا هي تسائل نفسها: أي شيء يدور بخلده، وهو يستشعر ذوقها الغريب في غرفة نومها التي كانت مظلمة لولا البصيص المنبعث من ضوء المصباح، وقد حرصت على أن تبقى بعيدة عنه حتى لا تحدث مقابلة أخرى عارضة بينها وبين يده. وسألها:

«هل هناك أية صور على الجدران قد تقع وتصيبك بجراح؟»

وراحت تحدّق في أرجاء غرفة اليشب التي سميت كذلك بسبب اللون الأخضر الجميل على الجدران والسقف، كانت هناك لوحات عديدة، ولكنها كانت مرسومة على الحرير من رسم فنان شرقي. فقالت:

«قليل من اللوحات الصغيرة، أعتقد أنها صينية، وهي جميلة ومرسومة بطريقة غريبة».

«اتركيها إذن حيث هي، هل تحبين غرفتك؟»

«أجل، إنها غرفة جذابة جداً تختلف كثيراً عن الغرفة الضيقة التي كانت لي قبل حضوري إلى هنا، فليست لديك أي فكرة يا سيدي عن مدى الجمال الذي يحيط بي هنا، بعد إقامتي في جزء كئيب من لندن».

«إنني أتساءل إذا كنت ستظلّين تعتبرين هذا المكان ساحراً، لو أننا ظللنا على قيد الحياة بعد هذه الليلة... أنت وأنا؟»

«أرجو ذلك، ويبدو وكأن الليل قد حلّ فعلاً... فالدنيا مظلمة وعاصفة جداً في الخارج، والمصابيح مضاءة في الداخل».

وراح يدور بعينيه حوله، وكأنه يحاول تصور كيف تبدو الغرفة. ثم خطا خطوة للأمام وقال يسألها:

«هل هناك المزيد من هذه السجاجيد الكامنة انتظاراً لايقاعي؟»

«سوف أقودك إلى الباب يا سيدي».

وأحست بأصابعه بين أصابعها وهي تقوده نحو الباب، بينما انبعث من الكيمونو المصنوع من حرير ناعم صوت حول ساقيها العاريتين... وسمعته يقول فجأة بخشونة:

«لست أنا الذي يرتبك هكذا. لا بدّ أنه الجو... قولي لي، هل ترتدين غطاء حريرياً، وما لونه؟»

«لونه زئبقي، أقرب إلى الرمادي».

وبدا لها أن اللون الرمادي أنسب للصورة التي لا بد أنه يحملها لها، ولكنها لم تجرؤ على أن تجعله يتخيّل أن الكيمونو يجعلها مغرية إلى حد ما، بأكمامه الواسعة وبريقه المتلألىء. ثم... وقبل أن تدرك نيته، كان قد دسّ يده فجأة داخل كمها الأيمن، وأحسّت بأصابعه تطبق على ذراعها العارية النحيلة. ولم تستطع أن تفعل شيئاً، ولكن لمسته جعلت إحساساً مثيراً يسري في كل جسمها.

أطراف أصابعه وهي تعبث ببشرتها، كانت شيئاً مثيراً جداً لا يحتمل، ولكن كان عليها أن تضحي بمشاعرها، وتبعد ذراعها، ولكنها لم تكن سريعة إلى حد كاف، بينما أصابعه تقبض على ساعدها كأنها قفل حديدي. وباستطاعتها أن تشعر بابهامه وهو يضغط على نبضها الذي يدق بقوة...

وقال لها:

«إنك عصبية مثل القطة الصغيرة، فهل أنا السبب أم الاعصار الذي في الخارج؟»

«إنّ الرياح ذات صوت عال بصورة بشعة، ولم أسمع مطراً كهذا من قبل إنه أشبه بسيول من السكاكين تسقط من السماء على سطحنا».

ولم تستطع السيطرة على نبضها السريع، وكل ما تأمل فيه هو أن يعتقد بول أن حالة التوتر الشديدة التي تعانيها سببها العاصفة.

وقال:

«ألا تحبين أن يلمسك رجل؟ أستطيع أن أشعر بذلك وأحسه... هل أنت هكذا دائماً؟»

فرفعت ميرلين عينيها إليه محدّقة في وجهه تماماً... ولكنها قالت بخفة:

«أعتقد أنني كذلك يا دكتور، هناك كلمة تصف هذا الأمر. جمود عاطفي! إنّ النساء القبيحات يظهرن هذه الأعراض حتى لا يسخر أحد منهن، ولكن لن أفعل ذلك، فأنت رجل طيب، وأعتقد أنه من الغباء أن أمانع إذا قست نبضي».

«أهذا هو ما أفعله يا سيدتي؟»

«أجل، إنك تقيس ضربات قلبي وتتساءل عماّ إذا كنت سأصاب بلوثة عندما يبلغ الاعصار ذروته، ولكنني لن أفعل ذلك كما تعرف، فالعوانس ذوات إرادة قوية جداً، وذلك نتيجة وقوفهن على أقدامهن بدون مساعدة رجل، سأحضر غداءنا وأحاول ألاّ أحطم كل الأطباق».

وازداد التوتر ارتفاعاً بتصاعد قسوة الرياح التي بدت وكأنها تسيطر على مصاريع النوافذ وتهزها هزاً عنيفاً. ورأت ميرلين الوميض الأبيض الذي يعمي الأبصار للبرق ينفذ من بين المصاريع فيضيء المنزل وكأنه عين وحش ينتظر لكي يدمره، وارتعشت وهي تحسّ بضغط أصبع بول على لحمها وعظامها وقد أمسك بها وكأنها دمية أمامه.

وأخذت سقوف بيوت القرية الهشّة تتمزق تدريجياً إرباً، وتحطّم سعف أشجار النخيل التي تحميها. لا تستطيع أن تعيش فوق جزيرة كهذه ولا تتأثر بالاعتقاد السائد في الرموز الوثنية القديمة. وقال بول وكأنه يقرأ أفكارها ولو لم يستطع أن يرى الهلع على وجهها:

«إن الأمر يزداد سوءاً، لقد حذّرتك، وبرغم أنك تتحدثّين الآن بزلاقة شجاعة، فإنّ كل هذا الضجيج العالي سيزداد حتى تبدأ أعصابك في التمزّق، واجهي الأمر يا آنسة ليكسايد فأنت حبيسة في منزل مع رجل يمكن أن يقع على وجهه بواسطة سجادة. إنك بمفردك تماماً معي والله وحده يعلم إلى متى تستمر العاصفة، فقد لا

تهدأ قبل الصباح وقد تقتلنا».

وهزّ رسغها بعنف قائلاً:

«هل كنت تدركين عندما طلبت الحضور إلى هنا للعمل كسكرتيرة لي أنه ليست هناك أية أماكن شاعرية على هذه الأرض؟»

فردّت قائلة:

«لست طفلة، ولم آت إلى هنا بفكرة العثور على فردوس، بل جئت مدركة لما قد أواجهه».

وكان لهذه الكلمات مغزى أكبر كثيراً مما أدركه. فقد كانت تعلم أنها قد تضطر لمواجهة عاصفة عاطفية قد تكون أشدّ قسوة من العاصفة الطبيعية. وأنه هو القوّة المنتظرة التي تستطيع أن تمزقها إرباً.

وقال:

«امرأة ذات شخصية، أليس كذلك؟»

ولكنه لم يكن يسخر منها، وقد رأت ميرلين على وجهه نظرة تأمل استمرّت لحظة قبل أن يترك رسغها من بين أصابعه، ثم قال:

«تعالي إلى الطابق الأرضي بمجرد ارتداء ملابسك. وأحضري معك أي شيء فقد تحتاجين إليه خلال اليوم. فسنكون أكثر أماناً في الطابق الأرضي إلى حدّ ما».

واستدار نحو الباب وخرج منه بخطوات قوية يمكن أن تخدع أي شخص لا يعرف أنه أعمى، بينما وقفت هي في مكانها تستمع حتى وصل إلى الدرجات، حيث أصبحت خطواته أكثر تأنياً وحرصاً وهو يهبط إلى الطابق الأرضي. ثم اتجهت نحو خزانة ملابسها وهي تفكّر فيما ترتديه... وقالت لنفسها أنه ينبغي اختيار ثوب معقول، احتمالاً لأسوأ الأمور، فقد يجدان نفسيهما يتخبطان في الوحل والماء. ولكنها عندما مدّت يدها، لم تختر سترة صوفية وبنطلوناً، بل اختارت ثوباً طويلاً من الحرير السميك في حمرة الزنبقة، وقميصاً عاجي اللون. ثم أخرجت أفضل ثيابها الداخلية، وراحت ترتديها وكأنها ذاهبة إلى مأدبة. وجلست بعد ذلك

أمام مائدة الزينة، وصفّفت شعرها بالطريقة التي رأت بعض نساء الجزيرة يصففن شعورهن بها، ثم وضعت بعض المساحيق على بشرتها، وطلت شفتيها بلون أحمر، وعندما وقفت أمام المرآة رأت فيها صورة فتاة رشيقة، ولم تستطع أن تكبت تنهيدة صغيرة، وهي تقول لنفسها، لو أن بول استطاع أن يراها فربما أحبّها قليلاً!

يحبها؟ إنّ بول لو عرف من تكون، فسوف يكرهها كرهاً أسود كالعمى الذي ساعدت في إصابته به!

وحدّقت في نفسها، ثم تساءلت: أي شيطان جعلها ترتدي هذا الثوب، سوف يسمع بول حفيف فستانها الحريري الطويل، ويتعجّب معتقداً أن العاصفة قد سلبتها عقلها، ويعتقد أنها غبيّة، وأنها تقوم بدور دليلة إلى النهاية!

ولكنها برغم ذلك لم تستطع أن تجبر نفسها على ارتداء شيء أكثر تحشماً، إنّ أعمدة المنزل قد تنهار على رأسها هي و بول، ولكنها أرادت أن ترتدي ثوباً يليق بالمناسبة مرّة واحدة في حياتها. وإذا كان بول لا يستطيع أن يراها، فإنه سوف يحس أنها ترتدي ثوباً أنيقاً وكأنهما يتناولان طعام العشاء في مطعم، بدلاً من أنتظار قدوم الاعصار ليجتاح السقف الكبير المصنوع من سعف النخيل لبيت النمر!

ونثرت ميرلين في حركة تحد رذاذاً من العطر وراء أذنيها وحول عنقها، بل وتحت ثنايا مرفقيها.

كانت رائحة العطر تحوي قدراً ضئيلاً من المسك، وقد أصابها الذعر لحظة، عندما خطر ببالها أن بول بحواسه المرهفة إلى أقصى حدّ، سوف يشمّ تلك الرائحة الغريبة بمجرّد وجودهما معاً، ويجب ألا تنسى أن الشيء الوحيد الذي يحميها، هو اعتقاده أنها عانس في منتصف العمر!

وفكرت برهة في أن تزيل رائحة العطر، ولكنها تردّدت... إنه يكمل المظهر الذي صنعته لنفسها، وأحجمت عن نبذ منظرها الساحر لتعود إلى مظهرها العادي

الذي لا يلاحظه أحد.

إنها تحب... وقد يكون ذلك هو آخر يوم لها على الأرض... وتود أن ترتدي الحرير وتكون رائحتها جميلة وهي تقدم لبول طعامه، كواحدة من هؤلاء الفتيات الجميلات في الجزيرة.

وهبطت إلى الطابق الأرضي بينما كان البيت يميل ويهتز كأنه سفينة وسط العاصفة، ولكن الأحساس المثير في الحقيقة كان في رأسها أحدثته الرياح وأعصابها المتوترة بشدة. ووقفت تمسك بالدرابزين، وقد بدا أنها معلقة بين الجحيم، وأعجب السموات... إنه شيء لا يصدق، ولكن ها هي هنا وسط العاصفة، في بيت قد يحطمه الاعصار، وحيدة تماماً مع الشخص الوحيد الذي يهمها في هذا العالم.

وأخذ قلبها يدق بعنف وانطلقت إلى المطبخ بحثاً عن الأطباق، ووجدت في الثلاجة بعض اللحم البارد، وأعدت سلطة من البندورة والخيار مع شريحة من الخبز وأناء من القهوة القوية.

كانت ميرلين تعرف أنه عندما يهب الاعصار فإن شيئاً لن يبقيهما في أمان إذا كانا في مركز الاعصار، ولكن في نفس الوقت فإن الأبواب الثقيلة منعت الرياح من اقتحام المنزل ومنحتها احساساً بالأمن، بينما كانت الأمطار تتساقط كالسيول، حتى شعرت وكأن المطبخ موجود تحت سطح البحر!

وكان هناك مصباحان من مصابيح الأعاصير يكفلان الضوء، وعلى المائدة الخشبية الكبيرة قامت بإعداد أعجب وجبة طعام في حياتها، ودفعت العربة الصغيرة التي تحمل الأطباق، حتى إذا بلغت القاعة نادت بول بدون أن تعرف في أي غرفة يعتزم أن يتناول غداءه، وبينما كانت تنظر في غرفة الطعام سمعت صوته قادماً من الطرف البعيد للقاعة يناديها:

«من هنا، إنني أسمع صوت عربة الطعام، ولا بد أن أعترف بأنني جائع جداً».

فقالت:

«إنها وجبة خفيفة مع القهوة».

«إنني أشم رائحة القهوة، الآن أستطيع أن التهم أي شيء... أليس من العجب أن الخطر يزيد من احساسنا بالجوع؟ هذه يا سيدتي الغرفة التي سنتشارك فيها خلال الاعصار، وإذا ساعدنا الحظ بقينا على قيد الحياة، أرجو أن تدخلي».

ودفعت ميرلين العربة الصغيرة إلى الداخل، كانت الغرف صغيرة إلى حد ما وكسيت جدرانها بأحجار القرميد القديمة الجميلة، التي حال لونها، فأصبحت أشبه بالمخمل الأزرق الذي يكسوه التراب، وللغرفة باب من خشب الساج الثقيل، ومقاعد من الخيزران. أضيئت فيها المصابيح الخاصة بالاعصار فأضفت ضوءاً كهرمانياً على خزانة من الخشب المصقول ونموذجاً لسفينة صينية قديمة من الخشب والعاج، بدت بأسلاكها اللامعة وكأنها تتحرّك في الضوء المرتعش.

كانت غرفة تقع في وسط المنزل تماماً، وبعد أن أغلق بول الباب جذب حبلاً فدارت مروحة كبيرة في السقف، فابتسمت ميرلين لقدرة بول التي لم يستطع حتى بصره الكفيف أن يضعفها تماماً...

وسألها قائلاً:

«حسناً فيم تفكرين؟»

«إنها راحة كبرى أن تبتعد بعض الضوضاء عن آذاننا».

«إن المروحة تحدث بعض الصرير، ولكننا بحاجة إلى التهوية... وسوف نتخيّل بأنها أصوات الفئران، هل تخافين الفئران؟»

«كلا، الواقع أنني كنت أحتفظ بفئران بيضاء وأنا طفلة».

«آه الطفولة! كم من أحلامنا تبددت! هل هناك مائدة هنا؟»

ودارت ميرلين ببصرها حولها فرأت مائدة قصيرة الأرجل محشورة في أحد أركان الغرفة، فقالت:

«هناك مائدة من تلك الموائد الشرقية المنخفضة، وسيكون علينا أن نجلس على الأرض لكي نأكل عليها».

«هل تمانعين في ذلك؟»

«كلا على الاطلاق، نستطيع الجلوس بارتياح فوق وسائد المقاعد».

«رائع، كل وسائل الراحة تقريباً موجودة في المنزل!»

«إن الجدران كلها مغطاة بالقرميد، هل تعرف ذلك؟»

«أجل، فقد تحسستها وهذا هو السبب في قراري بأن نحتمي بهذه الغرفة الصغيرة. هيا نتناول قهوتنا وطعامنا، إن رائحته طيبة».

«إنه لحم بارد فقط ولكن البطاطا ساخنة، وهناك سلطة، سأقوم بترتيب الوسائد والاشراف على خدمتك».

«مثل فتاة الغيشا؟»

«ما الذي جعلك تقول ذلك؟»

«ألا تزالين ترتدين الكيمونو؟»

«كلا، إنني أرتدي ثوباً طويلاً».

«من الحرير؟ إنني أستطيع أن أسمعه وأنت تتحركين».

«أجل، تحدياً للعاصفة، بعض الحماقة ولا شك، ولكنني لم أستطع أن أقاوم ارتداء شيء قد لا تتاح لي فرصة ارتدائه مرة أخرى».

«هل تعنين أنك تريدين أن تموتي وأنت أنيقة؟ لماذا لم تقولي لي أنك سوف ترتدين ثوباً حتى أرتدي شيئاً أكثر رشاقة؟»

فقالت وهي تنظر إلى الغبار الذي يكسو جبهته،وشعره الأشعث المبلل بالعرق:

«أنت تبدو في حالة جيدة».

وأحضرت المائدة الصغيرة، وجمعت الوسائد من فوق المقاعد ورتبتها على جانبي المائدة، وأمسكت يد بول وأجلسته في مكانه، وبينما كان يطوي ساقيه الطويلتين، بدا وكأنه يميل نحوها قليلاً ورأت توتر أنفه، لقد شمّ أريج عطرها، وبينما كانت تضع الأطباق وتقدم الطعام، توقعت سماع ملاحظة ساخرة.

قالت وهي تجلس على وسائدها:

«أعرف فيم تفكر، أنني ارتديت هذا الثوب وتعطّرت بالرائحة، مثل الغواني. لا أدري ماذا حدث لي! لا بد أنك تعتقد أنني فقدت رشدي؟»

فقال مطمئناً إياها:

«إنني لا أفكر حقيقة بهذه الصورة، إذ أرى أنه من الطبيعي تماماً أن تجد المرأة فرصة لارتداء ثوب لم تشتره إلاّ منذ وقت قريب، أنت ترتدين حريراً شرقياً لأن له صوتاً مثيراً وهو يتحرك حول بشرة المرأة، ومن ذلك أدركت أنك كنت تتسوّقين في القرية، ومن هناك أيضاً ابتعت العطر، أليس كذلك؟»

وراح يلتهم قطعة من اللحم البارد، بينما نظرت إليه ميرلين نظرة متسائلة وهي ترفع إناء القهوة وتصبها في قدحيهما، وقالت:

«هل تعتقد أنني حمقاء؟»

«كلا، أعتقد أنك امرأة يطويها الخجل، وقلّ أن تجاسرت على أن تكون على سجيتها، لماذا لا تنغمسين في قليل من المتع الخفيفة؟ هناك نساء ينغمسن في رذائل لن تفهميها أو تقدري على عملها، فلماذا بحق السماء تقولين عن نفسك انك غانية؟ لقد أحسست مرّة بالحافز الطبيعي لأن تتركي المرأة التي في داخلك تأخذ مكان السكرتيرة القادرة، وإنني أؤكد لك أنه إذ كان عطرك يزعجني لطلبت منك إزالته، وبالمناسبة هذه السلطة ممتازة».

فقالت وهي تقرب قدح القهوة من يده:

«يسرني أنها أعجبتك».

ومع أنها لم تكن تشعر بجوع شديد، فإنها قد سرّها أنه كان يتمتع بشهية طيبة.

كان يساورها احساس مشؤوم بأن المأساة التي بدأت في لندن سوف تصل إلى ذروتها هنا في جزيرة بولاو ـ انداه. كانت العاصفة لا تزال في ضراوتها وتزداد عنفاً، بينما جلست هي وبول يواجه كل منهما الآخر فيما يمكن أن يكون ساعاتهما الأخيرة في هذه الدنيا.

إنهم يقولون إنّ الاعتراف أمر مفيد للروح، ولكنها كانت تريد أن يستمر في احترامها حتى النهاية!

وقال بعد أن أحس بحركات سكينها وشوكتها القلقة:

«يجب أن تتناولي غداءك، فقد تمضي ساعات قبل أن نأكل مرة أخرى فكلما ازدادت العاصفة شدّة سيكون بقاؤنا في هذه الغرفة أكثر أماناً. هيا، لقد قدّمت وجبة ممتازة، والطعام سوف يساعد على تبديد توترك العصبي، تناولي طعامك يا سيدتي هذا أمر. إنني لا أريد أمرأة مغمى عليها بين يدي، إذ كيف يتسنى لي أن أعمل على انعاشك وأنت ترتدين ثوباً طويلاً من الحرير؟ سوف يربكني وضع رأسك بين ركبتيك».

وابتسمت وهي تبدأ الأكل، متمتعة بالنظر إلى بول أكثر من تمتعها بمذاق الطعام.

وقال وقد لمعت عيناه بصورة عجيبة فوق عظام وجهه التي تبدو وكأنها من نحت فنان:

«إننا نواجه اللعنة أو الجنة! وأعتقد أنني سعيد لبقائك في صحبتي يا آنسة ليكسايد».

وأحست ميرلين بقلبها يتحرك، لقد عرفت أنّ بول كان يشكرها بطريقته الخاصة لأنها لم تتركه يواجه الاعصار في ظلامه الموحش.

وأجابت قائلة:

«مرحباً بك يا سيدي، أتحب مزيداً من القهوة؟»

«إذا سمحت يا فتاتي... الغيشا!»

٥ - زئير العناق

مع أقتراب المساء، كانت الرياح قد ازدادت قوتها وأخذت تجتاح المحيط والجزيرة بمعدل خمسين إلى ستين ميلاً في الساعة، ولم تصل بعد إلى ذروة شدّتها. وقال بول لميرلين أنّ أمواج المحيط ستكون رهيبة، وأن البحر يرتفع لكي يلتقي بالسموات التي تتهال منها الأمطار فيا يشبه المرجل الذي تقلّبه مغرفة عملاقة بلا انقطاع في حركة عكس عقارب الساعة.

وسألته قائلة:

«هل تعتقد أننا قد نكون في قلب الاعصار؟»

«عين الشيطان! إذا كان الأمر كذلك فسيكون بمثابة يوم الحشر ولن يكون هناك وقت للوداع أو الأسف، لنستمع إلى أسطوانة أخرى يا سيدتي، ودعينا نبقى في بهجة قدر الامكان، إنّ تلك الاسطوانات القديمة تساعد على إغراق بعض الضوضاء.»

عثر بول على الحاكي القديم في عرينه مع صندوق من اسطوانات عتيقة، وقد أمضيا بعض الوقت في الاستاع إليها، كما أحضر زجاجة من الشراب وكأسين، قال بانه كان يدخرها للحظة التي سوف يكون فيها بحاجة إليها.

وبحثت ميرلين بين الاسطوانات حتى وجدت أغنية عاطفية قديمة عنوانها ليلة سعيدة يا حبيبي وكان اختياراً مناسباً، وبينما هي تدير الحاكي أخذت ترقب بول وهو جالس في مقعده الخيزراني الطويل في استرخاء، ولكنها أدركت من الطريقة التي يحرّك بها رأسه أنه كان في حالة إصغاء يشوبه التوتر بصفة دائمة.

كان ينتظر وهو يصغي بأذنيه الأكثر حدّة من أذنيها، وينتظر الاشارة لكي يفتح الزجاجة طويلة العنق. وقد عرفت أنه يقصد إعدادها للحظة التي يجتاحهما فيها الاعصار، اذا جاء، ويلقي بهما الى عالم لأبدية. وكانت تعرف أنّ ذلك قد يحدث. والشجاعة التي وجدتها لمواجهته مستمدّة من بول، إن بول كل شيء بالنسبة إليها وقد سيطر على كل كيانها، حتى أنها لا تريد أكثر من أن تعيش أو تموت معه.

كانت كلمات الأغنية القديمة التي تفيض حلاوة وتملأ الغرفة، وقد بدا أثرها على جفني بول، وتمنت ميرلين لو أنها لمستهما بأطراف أصابعها، لتتحسّس ارتعاش تلك الرموش الذهبية، وأن تنحني وقلبها على شفتيها لكي تمس المواضع التي أحس فيها بالألم وهو يفقد نور عينيه.

ولكنها يجب أن تبقي عواطفها رهن القيود، وأن تواصل القيام بدورها كعانس عجوز فقدت الاحساس بأية عاطفة حتى النهاية!

إنها إن اقتربت منه الآن، وجعلته يدرك أنها فتاة في ريعان شبابها، وأنّ قلبها يخفق بين جنبيها بقوة، ولا يهمها أنه أعمى، فلن يكون جزاؤها غير الارتباك والثورة الغاضبة، وقد يسخر منها وهي تقدّم له ما لم يطلبه منها، فهو ما زال شديد الكبرياء، وفي أعماقه رجل يريد أن يفعل ما يختاره هو!

وسمعته يتمتم قائلاً:

«ما أروع الأحاسيس العاطفية التي كانت لدى الناس، إنني مستعد لدفع الكثير لكي أرى ذلك القمر المرهق وهو يهبط. إن مشكلة ضياع البصر كما تعلمين هي أن الأنسان يبدأ في العيش على الذكريات... الذكريات الطيبة تبدو أكثر حلاوة، والذكريات المريرة أكثر حدّة وإثارة، ولا يبدو أنّ هناك أي اهتمام بالمستقبل، فكيف يستطيع الانسان أن يتطلّع للأمام وهو لا يستطيع حتى أن يرى؟ إنّ الذكرى التي تلازمني، هي أمستردام في آخر مرة كنت هناك، في بيت جدتي... بيت عتيق جداً حتى أن قرميد السطح يبدو أسود مشوباً بالاخضرار

كمعطف بال لصعلوك متشرّد... والمطر الرقيق يغمر زهور الزنبق في حديقة فتلمع كالحرير... أعتقد أنك لم تذهبي إلى هناك قط؟»

«كلا... ولكنها تبدو جميلة».

«إنها مدينة تثير الحنين إلى حدّ كبير... وليس هناك مكان آخر يتذوّق فيه الانسـ طعم الشراب المثلج وهو جالس أمام مائدة بجوار القنوات القديمة مع الخبز الأسـ والجبن المصنوع من القشدة».

وسألته:

«هل أنت جائع؟ أستطيع أن أعد لك وجبة خفيفة».

فهز رأسه قائلاً:

«كلا... إنني جائع فقط للأيام الغابرة، يا إلهي ماذا أستطيع أن أفعل لاستعادة كلّها... المتع المتواضعة، والعمل الشاق».

فقالت ميرلين وقد تساقطت عبراتها:

«أرجوك، إنني لا أستطيع احتمال ذلك».

فصاح قائلاً:

«يجب ألاّ تبكي، إنني أحمق لكي أتحدّث بهذه الطريقة وأنت متوترة الأعصا إلى هذا الحد».

فقالت وهي تحاول أن توقف بكاءها:

«ليس من الانصاف أن رجلاً مثلك...»

وقال بول بحدّة:

«إنني أستطيع أن أحس بك وأنت تقضمين أصابعك، إذا كان البكاء يفيدك فلا تكتمي دموعك».

«ولكنك قلت إنك لا تستطيع احتمال وجود امرأة تنتحب».

«كان ذلك حيلة لجعلك تذهبين إلى الوادي، إذ لو جاء الاعصار فإنه سيمزق هـ المنزل إرباً مثلما يفعل بعض الوحوش الضخمة في القصص الخيالية».

فقالت وقد حاولت أن تنتزع المرح من بين شفتيها:

«إذن لو أطلقت صرخة مروعة عند سماع الضجة العالية التالية. فإنك لن تعتقد أنني جبانة تماماً؟»

«أرى لك روحاً وأحاسيس. ولم أكن لأجد رفيقاً في وقت الأزمات خيراً منك. وقد تدرّبت على التمريض. وهناك شيء عنيد في شخصيتك».

وأحسّت بوخزات من الذعر والسرور لما قاله. ولكن قوّة احتمالها كانت مرتبطة به، بتلك الارادة الفولاذية في طبيعته... وكان أقسى اختبار لشجاعتها، أنها لا تستطيع أن تلتمس الأمن والملاذ بين ذراعيه!

كانت قد أدارت كل الاسطوانات القديمة المخدوشة. وكان المفروض أن تعيد إدارتها مرة ثانية. لكنها لم تستطع بذل الجهد للذهاب إلى الحاكي. وأحسّت أنها بدأت ترتعش... وقالت متسائلة:

«لماذا يجب أن تحدث هذه الأشياء القاسية؟ كل هؤلاء الأطفال الأبرياء... وأهالي الجزيرة... لا أستطيع احتمال التفكير في ذلك!»

«إن أهل بولاو - إنداه على قدر كبير من اللطف... أليس كذلك؟ لقد كنت مضطراً أن أدعهم يذهبون إلى الوادي. ولكن لست واثقاً إن كان هذا عملاً حكيماً أم لا. إن موجة مدّ قد تسبب خسائر لا تحصى في الأرواح... كل هؤلاء الأطفال بأصواتهم المرحة الذين لا بد أن وجوههم جميلة كأصواتهم».

«كثيرون منهم يتمتّعون حقاً بالجمال. وكذلك أمهاتهم وأخواتهم الكبيرات. إنهن جميلات جداً بشعورهن السوداء الطويلة والعيون التي تكمن فيها الأسرار والمرح. لا أستطيع أن ألوم ابن عمك لأنه أحب واحدة منهن».

فقال بول بصوت يجمع بين اللهجة الجادة وبعض السخرية:

«هل تعتقدين أنها ستكون فكرة طيبة لو أنني حذوت حذوه؟»

قالت وهي تتصنّع البرود والسيطرة على صوتها:

«ولم لا؟ أنك لن تكسب الكثير من البقاء أعزب. وحياة الوحدة يمكن أن تكون

قاسية».

«كما تعلّمت أنت أليس كذلك؟»

«كما تعلّمت أنا...»

وخفت صوتها، وكأنها بالفعل امرأة عاشت وقتاً طويلاً مع الوحدة وتقبلتها كأمر لا مفر منه.

كانت ترى الظلال وهي تزحف في انحاء الغرفة، منتظرة... آملة أن تهدأ الرياح، وتخف الأمطار، وأن تقلّ الأصوات الحادة وسقوط الأشياء التي تقع في الخارج... كانت أعصابها مشدودة إلى حدّ لا يحتمل... ومع ذلك فإنها لم تشعر قط بمثل هذا الوعي لكل نبضة في جسمها، وكل حركة مروّعة، وكل تعبير يأتي ويذهب على وجه بول. وكان إلى جواره على مائدة صغيرة يقف فيل نحاسي بدا أنّ خرطومه يتحرك وسط الظلال المتحركة، وفجأة تصلّب جسمها وانحنت إلى الأمام وكأن أنفاسها تحتبس في حلقها.

هناك شيء يتحرّك فوق تلك المائدة، وكانت يد بول تستند إلى ذراع مقعده الذي لا يبعد أكثر من بوصة عن هذا الجزء من المائدة، والشيء الذي يتحرك طوله ست بوصات على الأقل، وله سيقان حمراء وفكان!

وصاحت قائلة:

«أثبت تماماً في مكانك، هناك حشرة سامة على المائدة بجوارك!»

وفي الوقت الذي كانت ميرلين تتكلّم فيه، اندفعت نحو عربة الطعام الصغيرة قرب الباب، واختطفت غطاء فضياً للأطباق، وتحرّكت بسرعة إلى مقعد بول. ووضعت الغطاء فوق الحشرة الرهيبة السامة ذات اللونين الأسود والقرمزي، المعروفة باسم أم أربعة وأربعين!

وقال لها:

«ماذا حدث؟ أعتقد أنك أمسكت بها؟»

فقالت وهي تحدّق في الغطاء الفضي:

«يا إلهي... أجل... حمداً لله أنني رأيتها... كانت الحشرة تزحف نحو يدك».

«لا داعي للهياج العصبي ما دمت قد أمسكت بها... أحضري الزجاجة التي تناولنا بعضها بعد قهوة الغداء».

قالت:

«إنني على وشك الاغماء يا سيدي!»

«هل أوحيت أنا إليك بذلك؟ إن الكيروسين قد يكون أكثر فاعلية... ولكن الشراب من نوع قوي، وعندما تحضرين الزجاجة اسكبيها على الحشرة السامة وأحرقيها... هل سمعتني؟»

كانت ميرلين تشعر بقليل من الاغماء، ولكنها تحاملت على نفسها وعبرت الغرفة لاحضار الزجاجة ثم عادت تسير فوق حصيرة بدت وكأنها تهتز تحت قدميها.

وقال بول محذراً:

«إياك أن تحرقي نفسك، اغمريها بالسائل ثم أشعلي عوداً من الثقاب فيها، هل أنت واثقة أنك تستطيعين عمل ذلك؟ تذكّري أن الحشرة سامة ولدغتها يمكن أن تقتل».

«أعرف. ألا يمكن سحقها بشيء ما؟»

«ليست عندك قوة كافية لذلك، وأنا ليس لديّ البصر... ماذا وضعت فوقها؟»

«أحد أغطية الطعام، أين الثقاب؟»

«بجوار المصابيح، هل ترينها؟»

«أجل، هل تشعلون المصابيح بهذا الثقاب؟»

فقال بصبر نافد:

«بطبيعة الحال، والآن ارفعي هذا الغطاء بعناية تامة، واسكبي السائل فوقها ثم اشعلي الثقاب بسرعة، ولكن لا تشعلي النار في نفسك! والآن انزعي غطاء الزجاجة.

وبينما كانت تنزع الغطاء قالت له:

«هل تسمح بالذهاب إلى الجانب الآخر من الغرفة؟ إنها قد تقفز عليك، أرجوك».

فنهض من مقعده واقترب منها قائلاً:

«سأقف هنا».

وأمال رأسه لكي يصغي إلى صوت السائل وهو يسكبُ على الحشرة، وعلى المائدة، والحصيرة، وأجزاء من ثوب ميرلين الحريري، وما كادت الحشرة الضخمة يطلق سراحها حتى أخذت تدور حول نفسها، ثم توقفت وكأن السائل القوي قد أصابها بدوار، وفي تلك اللحظة أشعلت ميرلين عود ثقاب وألقته وهو مشتعل على الحشرة، فأشعلت فيها النار على الفور وأخذت تفرقع، وصاح بول قائلاً:

«أعيدي الغطاء فوقها».

وأطاعته بيد مرتعشة، وقد سرها أنها لن تشهد عملية الحرق.

وقال:

«عظيم. والآن خذي عدة أنفاس عميقة، ولن تشعري بأي دوار».

«يمكن أن تكون قاسياً تماماً، أليس كذلك؟ أما أنا فسوف أصاب بالكابوس مما حدث».

«يمكنك أن تعزي قلبك الرقيق بفكرة أن هذا العمل كان يجب عمله، ولكنه شغل ذهنك بضع دقائق عن الأعصار».

وحدّقت فيه ثم قالت:

«هل أترك البقايا حيث هي، أم آخذها إلى المطبخ؟ هل يمكنني أن أعد بعض الشاي؟»

«لا أدري».

كان يقف في مكانه وقد ضاقت عيناه مصغياً بأذنيه لما يجري خارج هذه الغرفة الآمنة نسبياً... ثم قال:

«خذي إحدى مناشف المائدة ولفي البقايا فيها وأخفيها في مكان ما».

وفعلت مثلما طلب منها. ووضعت اللفافة على عربة الطعام الصغيرة مع بقايا الطعام ثم قالت:

«لقد احترقت المائدة الصغيرة».

«لولاك للدغت الحشرة يدي».

كانت هناك ابتسامة على أطراف شفتيه، ولكن عينيه كانتا حادتين وهو يقول:

«أشكرك على عينيك السريعتين وثبات أعصابك، بعض النساء يمكن أن يصبن بالهيستيريا في هذ الموقف».

«لست من هذا النوع، من المؤسف أننا لا نستطيع تناول الشاي أنني أتوق الى قدح منه».

«المرأة البريطانية النموذجية، الشاي دائماً في لحظة الأزمة؟ ولكن الشراب أكثر روعة وعلينا أن نحتفل بانقاذك حياتي، لم يكن يهمني كثيراً أن أنتهي بهذه الطريقة».

«أما أنا فيهمني كثيراً».

في تلك اللحظة ساد سكون مفاجىء مزعج على المنزل، كانت المصابيح تشتعل في ثبات والمرواح المعلقة في السقف ينبعث منها صرير مرتفع، وصبت ميرلين الشراب الذهبي، ووضعت كأس بول في يده فشكرها برقة وقد بدت تقاطيع وجهه وكأنها صبّت من البرونز، لا تتحرّك فيها أية عضلة، أو حتى رموش عينيه وهو يستمع في سكون.

ورشفت قطرات من كأسها، وهي تشعر أنه يصغي بكل جسمه، كانت تعرف أنّ كل حواسه مسلّطة على ما يحدث في الخارج في الظلام...

وقال فجأة منادياً إياها باسمها الأول وهو ما لم يفعله من قبل:

«ميرلين... هناك فجوة في جدار هذه الغرفة، ولكني لا أذكر اتجاهها بالضبط.

فخذي بيدي إليها، ثم ضعي الوسائد على أرض الغرفة، وهناك سوف نتناول شرابنا ولا نفكر إلاّ في الأوقات السعيدة التي مرّت بحياتنا، إن الفجوة سوف تكفل لنا بضع لحظات من المأوى. فقوديني إليها».

قالت وهي تحكم أصابعها فوق أصابعه:

«إنني سعيدة لأنني لم أتركك تواجه هذا بمفردك، سعيدة لأنني معك».

فقال:

«إنك تتكلمين كفتاة ذات خيال عاطفي، ماذا يستطيع رجل أعمى أن يفعل لك؟ إنني بين يديك!»

وقادته نحو فجوة الجدار في الطرف الآخر من الغرفة، ثم جمعت كل الوسائد وكومتها على الأرض... وجلسا بينها وبعد الكأس الثانية قهقهت ميرلين فجأة قائلة:

«يا له من جنون... شخصان ناضجان يسترخيان مثل مراهقين في حفل صاخب، متى تتوقع أن تبدأ الروح الشريرة في قذف قطع الأثاث؟»

«سريعاً... أو لا تفعل على الاطلاق، إن للترقب طابعاً مخيفاً وان كان جذاباً».

وتوقف عن الحديث، إذ استيقظت الرياح مرة أخرى في تلك اللحظة، مطلقة صرخة شيطانية... فقال لها:

«تخلصي من هذه الكؤوس والزجاجة بسرعة، أبعديها عن الفجوة إذ قد تتحطم».

وأطاعته ميرلين وقد راح قلبها يدقّ بعنف ورأسها تدور، ثم وجدت نفسها تطير عائدة إلى حيث كان ينتظر، غير مدركة أنه من الغريب أن تجد ذراعيه مفتوحتين في انتظارها لكي تغوص بينهما وأطبق عليها بقوة، جاذباً إياها نحوه.

حسناً... إذا كانت هذه هي نهاية كل شيء، فإنها تريد أن تنتهي بين ذراعيه، وتلتصق بصدره الصلب، حتى تتمتع بالذوبان على قلبه، لم يعد يهمّها إن كان سيدرك من مشاعرها أنها أصغر كثيراً من المرأة الرزينة التي زعمت أنها هي...

وضمها إليه بقوة ليحميها بعضلات جسمه، فلاطفته بذراعيها، وعندئذ

أخذت الرياح المتضاربة تهاجم المنزل، وبدت وكأنها ترفعه من أساسه. بينما ظل بول محتضناً إياها وقد أسند رأسه إلى شعرها.

وراح المنزل يهتز بعنف، واختلطت الرياح والخوف والحب معاً في رأسها كانت العاصفة تزداد شراسة من حولها، قاذفة بالأشجار على المبنى، منتزعة مصاريع النوافذ، ومقتطعة أجزاء كبيرة من السقف المصنوع من السعف المجدول.

وقالت ميرلين لنفسها ان هذا الكابوس لن ينتهي أبداً... وإذا انتهى، فإنها هي و بول سوف ينجرفان بسرعة مع العاصفة. تمزقها إرباً على الأرجح. ولكنها على استعداد لأن تطير معه خلال الفضاء المظلم إلى حيث السلام الصامت العميق!

وسمعت صوته في أذنها مباشرة:

«هل استغرقت في غفوة نوم هنا؟»

وبذلت جهداً لكي تفتح عينيها ورأت وجهه فوقها مباشرة. لا بد أنه قد مضت ساعة، أو لحظة أبدية، ولكنها بين ذراعي بول لم تقاوم هدير التنويم المغناطيسي في أعماق رأسها، وانحدرت إلى نوع من الغيبوبة منتظرة ما سيحدث.

ثم أحست بنفسها تعود إلى الأرض عندما بدأ بول يرخي ذراعيه من حولها ويتركها إلى احساس مفاجيء من الفراغ والقشعريرة.

وقال لها:

«لقد مرّ الاعصار فوقنا... فوقنا تماماً... وأحدث قدراً كبيراً من التلف كما أعتقد، لأنه يتحرك كمراوح آلة قطع ضخمة، ولكنه بعد أن مر يواصل طريقه، وأعتقد أننا الآن آمنان وبعيدان عن الخطر»

كانت ميرلين راقدة على الوسائد وهي تستوعب كلماته، وقد التف شعرها الأشعث على وجهها وعنقها، بينما وقف هو مبعداً شعره الأشعث عن عينيه، غير أن نظرة في وجهه أثارت هلع ميرلين، نظرة جادة متأملة، وكأنه يفكر في شيء لا

علاقة له بالاعصار ذاته!

وقالت

«شكراً لله أن هدأت الرياح الصارخة».

وجمعت ميرلين شتات نفسها، وأعادت ترتيب ثيابها ومرّت على شعرها بيد تفتقر إلى الثبات. لم يكن سهلاً أن تعود إلى حالتها الطبيعية بعد التجربة التي خاضتها، إنّ الصدمة والاثارة مازالا باقيين، وبرغم أنها تعلم أن دافع بول لحمايتها ليس له صلة بشخصها، إلاّ أنّ السحر لا يزال يتدفّق كالزئبق في عروق ميرلين.

وقالت وهي حريصة على إخفاء مشاعرها الدفينة:

«ما أروع أن يظل المرء حياً، كان الخطر قريباً جداً أليس كذلك يا سيدي؟»

لقد عادا مرة أخرى مجرّد مخدوم وسكرتيرته، ولا بد أن تظل كل العواطف والأحاسيس تحت سيطرة صارمة، وعليها أن تواجه الحقيقة. إن ما حدث لن يتكرر مرة أخرى، ولولا الظروف غير عادية لما أمكن لها أن تحس بعناقه، وذلك كان رائعاً برغم الخطر الذي كان يهدد حياتها.

وسمعت صوته يقول:

«كانت تجربة غريبة جداً، لقد أحسست وكأن شيئاً يرفعنا إلى الاعلى ثم يسقطنا مرة أخرى. ماذا كان شعورك أنت؟»

«لقد ظللت متعلّقة بك فقط، كان كل ما أريد هو ألاّ أنجرف وحدي بعيداً».

وضحكت رغماً عنها وهي تقول:

«ولعلني تركت آثار أظافري في ظهرك!»

«إذن دعينا نأمل ألاّ يلاحظها الغلام الذي يعمل خادماً خاصاً لي!»

كانت هناك نغمة غريبة في صوت بول، ونظرت إليه ميرلين في تفحص، بينما أضاف هو قائلاً:

«إن طعنات الأظافر قد تدينني، أليس كذلك؟»

وركزت عينيها على وجهه، بينما أحسّت بنبض قلبها يدقّ في جنون مفاجىء، وقالت:

«تدي ،لكن لماذا؟»

«علام عاطفة يا آنسة ليكسايد!»

كان ينطق هذه الكلمات في غطرسة تقريباً، ومضى يقول:

«لا تقولي لي ببراءة أنك لا تعرفين أن العشاق يعضون ويخدشون أثناء العناق؟ وإذا كانت عدم ثقة الرجل في المرأة بمثل شدّة رغبته فيها، فإنه يشعر بحافز قوي لكي يسبب ألماً لجسدها الأبيض المغري، والرجل الأعمى يجب أن يعتمد كثيراً على الثقة لأنه لن يعرف حقاً الملاك من الشيطان.»

ثم سألها بنفس اللهجة المتغطرسة:

«هل صدمتك بكلماتي؟ امرأة في سنك كانت لها خبرة في التمريض!»

وأحسّت ميرلين بقلبها يترنح، كانت هناك عاصفة من نوع آخر تتجمع، وهي وحدها في وسطها، ولكنه لم يكن مستعداً لاطلاقها، وفجأة أدار ظهره لها، وقال باقتضاب:

«لقد قضينا ما يكفي من الساعات في هذه الغرفة، وأنا شخصياً لا أريد أكثر من دوش بارد».

واتجه نحو الباب مستخدماً يده الممدة في التعرّف إلى طريقه، وفتح الباب على مصراعيه وكأنه لا يستطيع الانتظار طويلاً قبل الابتعاد عنها.

وأحسّت ميرلين أنها امرأة محكوم عليها بالفناء. إن وجودها بين ذراعيه أتاح له أن يقرأ حقيقتها بحواسه ويتحسّس نعومة شعرها على بشرته، وليونة جسمها النحيل، كانت لا تزال عذراء، لم تعرف مدى الشعور الذي يحدثه الاتصال بجسم رجل إلى هذا الحد القريب!

وقالت في تردد:

«أستطيع أن أطهي وجبة ساخنة إذا أردت يا سيدي».

فقال بدون أن يستدير نحوها:
«كما تشائين، ولكن لا تخرجي من المنزل لأننا لن نعرف قبل ضوء النهار مدى التلف الذي حدث، وسيكون الظلام الآن رهيباً، وربما كان هناك قدر من السيول، فالمطر ما زال يسقط وإن لم يكن بمثل عنفه السابق».
«أرجو أن يكون كل من في وادي الشاي على ما يرام».
«سوف يتولىّ لون العناية بهم والتأكد من بقائهم في مأمن في الأكشاك الطويلة التي يعبأ فيها الشاي ويختزن، وسيكون معهم طعام وما يلزم للنوم، إنها ستكون خدعة غريبة من الشيطان لو أن العاصفة عادت إلى هذا الاتجاه مرة أخرى!»
«هل تظن أذن أن الجزيرة آمنة الآن؟»
«دعينا نأمل ذلك».

وانطلق إلى الممر، بينما تهاوت ميرلين مستندة إلى الحائط وهي تتنهد بصوت يكاد يكون نحيباً... كانت تريد فراعي بول إلى حد أنها تخلّت عن حرصها، وهو الآن يدرك أنها خدعته طوال تلك الأسابيع، وهناك ما يبرر غضبه منها، وسوف يطلب معرفة نوع اللعبة التي كانت تلعبها معه.

كانت إحدى الممرضات هي المسؤولة عن ضياع بصره، ومنذ دقائق فقط كان يتحدّث عن خبرتها في التمريض بصوت فيه برودة وقسوة السكين الضخمة، التي يقطع بها أهالي الجزيرة ثمار الموز الكبيرة وجذوع قصب السكر الصلبة، ترى كيف ستبدو تلك الحقول في الصباح؟ لا بدّ أنّ العواصف والأمطار قد أتلفت الكثير من الحاصلات وأشجار الشاي وألقت بها في الأوحال. ولعل انشغال بول في معالجة الموقف سوف يجعله ينسى، ولكن ميرلين هزّت رأسها في يأس. كلا... إنه أمل بعيد جداً أن يسمح بول باستمرار الخداع وتظاهرها بأنها امرأة في ضعف عمرها الحقيقي!

وشرعت ميرلين في إعادة ترتيب الحجرة التي كانت ملاذاً لها خلال

الاعصار، وذهبت بعربة الطعام الصغيرة الى المطبخ، حيث كان أحد مصاريع النافذة قد انتزع كلية من مكانه وتحطّمت النافذة، وتدفق منها سيل من الماء. ووقفت بجوار النافذة غير عابئة بمياه المطر، وراحت تحدق في الليل المظلم الذي اختفت نجومه.

من الأفضل أن تبدأ في إعداد العشاء الذي وعدت بول به. واتجهت نحو الثلاجة وبحثت بداخلها عن أية شرائح لحم، سوف تعدّ له وجبة شهية، تستخدم خلالها كل براعتها التي تعلمتها في دروس الطهي التي كانت تأخذها خلال ساعات وحدتها في لندن. وراحت تعمل بنشاط في إعداد العشاء الذي كان يتضمّن شرائح اللحم والبطاطا وفطائر بالمربى.

لم تكن أول مرّة تواجه فيها مثل هذا القلق المعذّب. فليس هناك أسوأ مما مرّ بها عندما كانت تنتظر، لتعرف إن كان بول قد فقد بصره بعد الحادث. كانت عندئذ تبكي بدون أن تتمكن من السيطرة على نفسها، وهي تضرب يديها على جدار حتى أدمتهما، ولكنّها لا تزال الآن تأمل في أن يتركها بول تبقى كسكرتيرة له. أما الخوف الذي حاولت ألاّ تواجهه فهو أنه قد يعرف حقيقة شخصيتها، وليرحمها الله إذا حدث ذلك!

انهمكت ميرلين في طهي الطعام حتى أنها لم تسمع بول وهو قادم نحو الباب، ولم تشعر بوجوده حتى استدارت لاحضار طبق من الخزانة، وكاد الطبق ينزلق من يدها، كان يقف منتصب القامة في سكون، وقد بدا أنه يصغي إلى كل حركة من حركاتها، وقد ارتدى سترة صوفية طويلة العنق وبنطلوناً داكن اللون بينما كان شعره ما زال رطباً بعد الدوش الذي أخذه منذ قليل.

وسألها فجأة:

«هل تسيرين وسط المياه؟».

فقالت وهي تنظر إلى قدميها:

«ماذا؟»

كان خفها الشرقي قد امتلأ بالماء وكذلك جوربها وذيل فستانها... ودهشت لأنها لم تكن قد لاحظت أن مياه المطر قد انتشرت حتى بلغت مائدة المطبخ وقالت:

«أجل، لا بد أنها جاءت من خلال النافذة المحطمة».

فهتف قائلاً:

«محطمة! لقد شعرت بهواء الليل ولكني ظننت أنك فتحت مصاريع النافذة. هل هناك تلف كثير هنا؟»

«كلا، مصراع النافذة فقط انتزع، ولوح زجاج مكسور بسبب غصن شجرة نفذ منه».

«لا بد أن أفعل شيئاً بشأن ذلك يا آنسة. فلا يمكنك العمل هنا وسط البلل والهوا البارد، هل يمكنك احضار مكنسة وإزاحة الزجاج المحطم؟ وسوف أحاول أن تثبيت المصراع المخلوع».

«لقد وضعت الطعام في الموقد ويجب أن أراقبه. إنني لا أهتم الآن بالنافذة».

وعضت شفتها بحدة، إذ لم يفتها أن تلاحظ أنه ناداها بكلمة آنسة باللغة الهولندية، إذن فهو يمهد الطريق للمعركة الفاصلة، وأحست بحنجرتها تختنق خوفاً.

وهدتها غريزتها إلى السبب الذي جعل غضبه عليها أكثر حدة... فعندما كانت بين ذراعيه خلال العاصفة شعر بها تماماً كأنثى، كما شعرت به كرجل، ولو أنها امرأة أخرى لاستغلت هذه الناحية الآن، ولكنها ذات خجل وحياء، وتستحق أي نوع من العقاب، فهي قد أخطأت إذ جاءت إليه تحت ستار الخداع ولا شيء يمكن أن يغير حقيقة أنها ستشعر بالعار لا المتعة لو حاولت جعل بول يستسلم لاغرائها.

وصاح وهو يتقدم داخل المطبخ وقطع الزجاج تتفتت تحت حذائه:

«أتريدين أن تصابي ببرد مميت؟»

فقالت:

«سأزيح الزجاج وأساعدك في تثبيت مصراع النافذة، قف هنا لحظة».

«أجل، مثل كتلة خشب ملعونة، بينما تقوم فتاة تافهة بإزالة الحطام! لماذا جئت إلى بولاو - إنداه بحق الجحيم؟ من يريد نوعك هنا؟»

وتدفّقت العبرات من عينيها وتساقطت على وجهها وهي تحرّك المكنسة على أرضية المطبخ لازاحة قطع الزجاج المتناثرة نحو ركن بعيد عن طريقه. لم يكن لديها أي دفاع ضدّ غضبه، ولهذا لم تحاول الرد عليه.

وعاد يقول:

«هل فقدت لسانك الذي كان يتحرّك بسرعة حتى الآن؟ حسناً يا آنسة ليكسايد، أم يجب أن أقول الزانفة؟ هيا قودي الأعمى الأحمق إلى حيث يوجد مصراع النافذة، وسوف أحاول بطريقتي الخرقاء أن أثبته حتى لا تزحف الأفاعي والعناكب إلى الداخل وأنت تقومين بدور الخادم».

ورمقته ميرلين بنظرة قاسية، ولم تذكّره بأنها استطاعت أن تواجه الموقف عندما تسربت حشرة سامة إلى المنزل، كانت يدها كقطعة ثلج وهي تمسك يده وترشده إلى حيث يوجد المصراع الخشبي الثقيل وقد مال مستنداً إلى الحائط بعد أن تدلّت مفصلاته.

وزمجر قائلاً:

«يا لك من حمقاء غبية، إن يدك متجمدة، دعيني أحذّرك أنك إذا أصبت بقشعريرة وتحوّلت إلى حمى فسوف تمرضين جداً في هذا النوع من المناخ الأستوائي الذي لا يتفق مع تكوينك الانكليزي... وهناك كل نوع من الحشرات في الجو تهاجم الشخص المريض.»

فردّت قائلة:

«ينبغي أن يسرّك ذلك، فمن الواضح أنك تريد معاقبتي، وهذا ما ستتكفّل به الحشرات بدون أن تورّط نفسك. هل أساعدك في رفع المصراع؟»

«قفي أنت بعيداً، فلن تستطيعي إلاّ اسقاطه على قدميك الغارقتين في الماء على الأرجح، إنّ عينيّ يا آنسة ليكسايد هما اللتان بلا فائدة وليس ذراعي!»

ورفع المصراع الخشبي الضخم بدون أي جهد، واستطاع أن يضعه داخل إطار النافذة، ودق بقبضة يده على المفصلات ليعيد مسارها إلى فجواتها وقال:

«هذا يكفي حتى الصباح كما أظن، إلاّ إذا ثارت الرياح مرّة أخرى. ماذا تطهين، إنّ رائحته جميلة».

«طالما كنت لا تظن أنني أعدّ بعض جرعات الساحرات لكي أدس لك السم فيها!»

فقال:

«لقد تعلّمت كيف أحذر الساحرات وجرعاتهن، فهنّ لسن دائماً مؤذيات كما يبدو عليهن، وأنا الآن في وضع يتيح لي أن أثق في حاسة الشم عندي، وهكذا فانك إلى جانب كونك سكرتيرة بارعة، فانك طاهية ذات كفاءة أيضاً. فهل كتب عليّ أن أكتشف دائماً أي جوهرة أنت، وأي كاذبة صغيرة عجيبة؟»

«أرجو ألاّ تسمح لذلك بأن يفسد شهيتك، بعد أن كشفت خدعتي الصغيرة، إنني لم أقصد أي ضرر.»

فانفجر قائلاً:

«ضرر؟ إنك إما أن تكوني بريئة إلى حدّ لا مثيل له أو أكثر الفتيات اللواتي أوقعني سوء حظّي فيهن وقاحة! ولكن دعيني أقول لك شيئاً... سوف نأكل هذا العشاء لأن رائحته أقوى من أن يقاوم، أما بعد ذلك فسيكون هناك حديث صغير بيني وبينك، وسيكون عليك أن تفسّري هذه الحزورة التي تستمتعين بها على حسابي، ولكن قبل أن تغرفي الطعام في الأطباق عليك أن تصعدي للطابق الأعلى وترتدي حذاء آخر».

وأخذت عينا ميرلين تتفحّصان وجهه بسرعة، باحثة عن أية ليونة في ملامحه البرونزية الصلبة، ولكنه دار على عقبيه تاركاً إياها في حالة من الشك

العصبي والخوف، وقال لها:

«سأذهب لفحص الصالون، وإذا لم يكن هناك أي تلف فيمكننا تناول العشاء هناك ونتحدث».

وبينما كان صوت قدميه يتلاشى، راحت ميرلين تضغط يديها المهتزتين على وجهها، سوف تواجه تحقيقاً آخر، وسيكون جحيماً مثلما كان التحقيق الذي أجري معها في لندن!

٦ ـ بسمة مفاجئة

لم تكن هناك وسيلة لنسيان كيف وقفت شاحبة الوجه مذهولة أمام لجنـة المستشفى، بلا أي دفاع ضد الاتهام القاسي القائل، أنه بسبب إهمالها لواجباتها الأصلية، أصيب رجل بالعمى، وقالوا إنها من الممكن أن تواجه حكماً بالسجن لو وجّه بول فان سيتان اتهامات جنائية ضدّها.

لماذا لم يفعل بول ذلك، في حين اعترف أنه يكّن حقداً مريراً على الشخص الذي يعتقد أنه كان مسؤولاً عن ضياع بصره، هل يدّخر لها عقاباً آخر أكثـر تعذيباً؟ هي التي وجّهوا إليها اللوم، والتي لا مت نفسها لأنها لم تتأكد من أن حنجور العين من النوع غير الضار الذي يستخدمه دائماً... ولكن لماذا تشك في أن هناك أي خطأ في الوقت الذي حرصت فيه دائماً على أن تكون العقاقير التي في غرفة الجراحة منظّمة، وتحمل علامات واضحة عن محتوياتها؟ لم يكن ممكنـاً حدوث أي خطأ، إلاّ إذا كان بذلك متعمداً!

لم تستطع ميرلين أن تنسى الممرضة الأخرى التي كانت في غرفة الجراحة في ذلك اليوم، صغيرة الجسم رشيقة القوام، ذات شعر بني ناعم كالحرير تحت طاقية غرفة العمليات، وعلى شفتيها المكتنزتين بعض الاثارة، هل من الممكن أنّ لديها سبباً ما لايذاء بول؟ كلا... إنّ مجرّد التفكير في ذلك أمر مرعب، ليست هناك امرأة تفعل ذلك، والممرضة تعرف مقدماً مدى الألم والتلف الذي سيحدث.

كان بول فان سيتان بقامته الطويلة وشهرته، مرغوباً من كثير من الاناث العاملات في المستشفى، فيا عدا أولئك اللواتي كنّ مخلصات لعملهن، إلى حد

انهن يفضلن الاهتمام برجل مريض على رجل في ربيع حياته العملية الناجحة.

وميرلين تواجه تحدّياً رهيباً مع الرجل الذي لديه ما يبرر رغبته في الانتقام من الممرضة، وليس أمامها مكان تفر إليه أو تختبىء فيه عدا الغابة المظلمة التي تقع وراء المنزل... حيث يجوس النمور!

وأخذت ميرلين تتلفّت حولها كمخلوق وقع في شرك، وأحسّت أن ساقيها غير قادرتين على حملها وهي تشق طريقها إلى الطابق الأعلى لتبدّل ثيابها.

وما أن دخلت غرفتها حتى سارعت إلى الحمام لتشرب بعض الماء البارد، وأحسّت بما يشبه الاغماء، فاستندت إلى حوض الغسيل وأغلقت عينيها وهي تشعر باختناق، وكأنها لا تستطيع أن تتنفّس الهواء برئتيها. إنّ بول يعرف من هي، وسيجعلها تعاني وتتألم لما يعتقد أنها فعلته به!

يا إلهي لم يكن الألم، أو حتى الاذلال هو الذي جعلها تنكمش... بل أن يكرهها ويسخر منها الرجل الذي يعني كل شيء بالنسبة إليها، وتفضل الموت على أن تواجه محنة هذا الحدث، فلتساعدها السماء.

خلعت ميرلين ثوبها المبلل وجوربها الطويل، وأخذت تجفّف قدميها بالمنشفة حتى أحسّت ببعض الدفء فيهما، ثم ارتدت الكيمونو المطرز بالزهور، ومشطت شعرها إلى الوراء في نعومة وعقصته خلف عنقها. ونظرت إلى المرآة فشاهدت وجهاً شاحباً خائفاً، وعينين كبيرتين يكاد يغمرهما اللون الأسود، وارهاقاً أصاب روحها وجسدها ثم دسّت قدميها في خف بلا كعبين. لا بد أن بول ينتظرها في الصالون، مثل الجلاد والمحكوم عليه بالاعدام، لا مفرّ من هذه المواجهة إذ أنها إذا لم تهبط اليه فسوف يصعد هو اليها.

وسارت وهي رافعة الرأس، وهبطت الدرجات إلى الطابق الأرضي واتجهت نحو باب الصالون الذي كان مفتوحاً بعض الشيء. كان بول في الداخل وظهره نحوها، وأمامه ستار جميل مرسوم باليد، يصوّر طيوراً زرقاء متلاصقة الأجنحة نحو أبراج قلعة بين السحب، وقد بدت الطيور المطرزة بطريقة بارزة تجعلها تبدو

بعيدة عن حريز الستار، وأدركت ميرلين على الفور أن بول كان يتحسّس المنظر بأطراف أصابعه، مستشعراً طيران البغباوات العاشقة، الرمز الشرقي للسعادة والهناء!

وقالت في تردد:

«كنت على وشك إحضار العشاء هنا، هذه الغرفة تبدو مناسبة تماماً».

فدار على عقبيه قائلاً:

«أجل... إنها ليست سيئة جداً، برغم أن بها نافذة محطمة أخرى، ولكنني وضعت الستار أمامها... هل أبدلت خفيك المبتلين؟»

«أجل يا سيدي... سأحضر الطعام الآن».

وهرعت إلى المطبخ، حيث وضعت الطعام في الأطباق بيدين مهتزتين، وهي على ثقة من أنها سوف تسقط الصينية في طريقها إلى الصالون، ولكن ذلك لم يحدث لحسن الحظ، ووضعت الصينية المحملة بالأطباق بسلام فوق مائدة سوداء مصقولة كانت موضوعة أمام أريكة جلدية منخفضة، ذات ذراعين كبيرتين، وأضافت سجادة شرقية جميلة طابعاً بديعاً للغرفة.

ونظّمت ميرلين طبق بول وأدوات المائدة الخاصة، وأحنت رأسها وملأ الخوف قلبها، ثم وضعت طبقها عند الطرف البعيد من المائدة، وعندما رفعت الأغطية عن الطعام ملأت رائحة لذيذة أرجاء الصالون، وقالت بصوت خافت حاولت ألاّ يبدو مرتعشاً:

«العشاء جاهز يا سيدي، وأرجو أن يعجبك الطعام المطهو على النمط الانكليزي على سبيل التغيير».

وعبر الغرفة مسترشداً بصوتها، فمدّت ميرلين يدها وأمسكت رسغه وجذبته نحو الأريكة أمام المائدة وقالت:

«هنا، إنّ طبقك جاهز إذا شئت أن أجهز لك لحمك وخضرواتك؟»

«أرجوك أن تفعلي، يبدو من رائحة الطعام أنك تعرفين كيف تطهين حقاً».

وجلس ينتظر، بينما وضعت هي الطبق حيث لا يجد صعوبة في العثور على ما يريد، ووسط السكون الذي ساد بينهما كان في إمكانه أن يسمع حفيف كميها الحريريين بوضوح، فقال وهو يقضم قطعة من الخبز الجاف الهش:

«هذه المرة ارتديت كفتيات الغيشا، أليس كذلك؟»

ولم ترد، بينما أخذ هو يأكل وعيناه نصف مغلقتين، متذوقاً الطعام في إعجاب، ثم تمتم قائلاً:

«رائع أكاد أتخيل نفسي في مطعم الريتز، باستثناء أن رجلاً كان يخدمني هناك بدلاً من فتاة ترتدي كيمونو، هل تعرفين أي شيء عن فتيات الغيشا؟»

«ليس الكثير». .

«إن فتاة الغيشا تدرب تدريباً تاماً على أن تقدم للرجل كل ما يرغب فيه، من الطعام والشراب والموسيقى والرقص، إنها مثال لكل الفضائل. جميلة كالدمية، ولكنها لا تكون قط حقيقية تماماً، والرجل الذي يريد أن يتمتع بصحبتها، يجب ألاّ يتوقع قط منها أو من نفسه أن يتجاوز حدود الأدب والتقاليد. إنها ليست عادية، ولكنها تشكلّ الحلم المثالي للرجل، لكن الاحلام يمكن أن تكون حقيقة بعد أن يقال كل شيء، ومن ثم فإنني أرجو أن تغفري لي يا آنسة ليكسايد إذا توقفت عن التفكير فيك باعتبارك فتاة الغيشا بالنسبة إلي».

وتوقف عن الحديث ورفع عينيه إلى أعلى، وقال:

«والآن كفي عن التردّد وتمتعي بما أعددت من طعام شهي».

ولم تشك ميرلين في أن هناك معنى مزدوجاً لما قاله. وجلست على الأريكة مبتعدة عنه قدر الاستطاعة وبدأت تتناول عشاءها في سكون، وهي لا تشعر بأية شهية للطعام. فقد كانت تحس بالتوتر يسود الجو مثلما كان خلال العاصفة.

ووضع سكينه وشوكته على المائدة ومسح فمه بمنشفة صغيرة ثم اضطجع على الأريكة.

وسألته ميرلين:

«هل تتناول الحلوى الآن؟»

«لا أظن أنني في حالة تسمح بتناول أي حلوى، بحق السماء كفي عن ادعاء أنك تأكلين، لقد سئمت ألعابك!»

«إنني آسفة».

وتألقت عيناه الرماديتان بوهج د من الانتقام الذي بدأ ينيرهما، وقال:

«إنّ ارتداءك هذا الكيمونو لم يجعا ـ رمزاً لكل الفضائل، والآن ماذا تفعلين؟»

«إنني أجمع الأطباق لأحملها إلى المطبخ، هل تريد قهوة أم شاياً».

كان صوتها يرتعش قليلا، كانت تريد أن تبتعد عن العاصفة التي تتجمع في عينيه، ولو لفترة قصيرة فقال في اقتضاب:

«تستطيع القهوة أو الشاي أن ينتظرا، ضعي الصينية ثم تعالي هنا إنني أحذرك يا آنسة، إذا خطوت خطوة واحدة خارج الغرفة فستجدينني خلفك، ولا تتصوري أنك تستطيعين الافلات مني، وإذا تعثرت في شيء وسقطت، فسوف تكونين إلى جواري لتقدمي لي لمستك الباردة المتعاطفة، وهي من الأشياء اللازمة للممرضة، أليس كذلك؟ ولا يمكنني أن أفهم لماذا تخلّيت عن هذا العمل».

وقالت ميرلين وهي تمسك الصينية التي تهتز بين يديها المرتعشتين:

«لا أدري ماذا تقصد بذلك؟»

«حقاً؟ ضعي هذه الصينية بأطباقها فقد تسقط على الأرض».

وأطاعت أمره كما أطاعته عندما طلب منها أن تعود وتجلس على الأريكة، وجلست على طرفها تماماً وكأنها تستعد للفرار إذا أصبح غضبه بادياً، وقالت مرة أخرى:

«إنني لا أسعى للحصول على أي شيء، وتلك هي الحقيقة».

«لا أظن أنك تعرفين معنى كلمتي يا آنسة، وأنت فتاة صغيرة جداً أليس كذلك؟ وهو ما أريد تفسيراً له إذا لم يكن لديك مانع، لماذا أدّعيت أنك امرأة في منتصف العمر؟»

«حتى أستطيع الاحتفاظ بوظيفتي، إذ كنت ستعيدني ثانية».

«هل كنت سأفعل ذلك حقاً؟»

«أنت تعرف أنك كنت ستفعل».

«وهل كانت الوظيفة رائعة يا آنستي؟ ولكني أفترض أنها كذلك، في رأيك، إذ يمكنك اعتباري أعمى أحمق، ولا بد أنه كانت هناك لحظات عديدة مسلية لك، في خداعك لي، لأنك لم تسمحي لي قط بتحسس وجهك، أو قامتك... وسوف تعالج هذا الاهمال الآن فوراً، لأنني بحاجة إلى أن أعرف كيف تبدين».

«كلا».

انطلقت الكلمة من بين شفتيها وقد شرعت في النهوض من الأريكة.

وقال يأمرها:

«أجلسي... ولا تكوني على مسافة أميال مني، بل هنا إلى جواري».

ورمقته ميرلين بنظرة شلّها الخوف، ثم نظرت إلى الباب، وقدّرت أنها تستطيع أن تصل إليه قبل أن يتمكن من أمساكها، ولكنها أحسّت بصدمة تهز كيانها كله، إذ أنه قبل أن تتمكّن من القفز على قدميها، كانت قبضته مؤلمة وهو يهزها ليجبرها على الجلوس بجواره، وظلّ ممسكاً بها بإحدى يديه، بينما راحت الأخرى تتحسّس وجهها وتدور حوله، مر بصدغها، وتوقف لحظة عند الشامة الصغيرة الموجودة بجوار عينها اليسرى، ثم تحرّكت أصابعه إلى الخط النحيل لوجنتيها، حتى فمها، ثم تابعت أطراف أصابعه خطّ شفتيها، وتحرّكت بعد ذلك إلى كتفيها، وجانب عنقها، حيث لف أصابعه الفولاذية فجأة حوله، وقال:

«ما أكبر عينيك يا صغيرة».

فقالت وهي تلهث:

«إنك قاس إلى حدّ بغيض... لماذا؟»

وحدّقت في عينيه اللتين ضاع بصرها، وراح قلبها يدقّ كالمطرقة تحت صدرها، وقالت لنفسها: يا إلهي... هل يعرف أن يدها هي التي قدمت له حنجور

العين؟ هل يمكن أن يكون تذكّرها وهي ترتدي ثوب الممرضات الأزرق والسلسلة الصغيرة التي تحيط بعنقها والطاقية الصغيرة المنشاة فوق شعرها المصفّف بأناقة؟

إنّ يده حول عنقها الآن، وابهامه على النبض الذي يخفق هناك بجنون، وقال متشدقاً:

«لماذا أنت خائفة إلى هذا الحد؟»

«لأنك بلا رحمة إلى هذا الحد. لم أكن أقصد أي ضرر لك».

«هكذا قلت من قبل، وإذا كنت قد أصبحت غريباً فيا يتعلّق بالرحمة تجاه النساء، فهل تلومينني حقاً؟»

وأحسّت بقلبها يدق بصوت كالرعد، إنه يعرفه... لقد حدّس وهو يلعب الآن معها كما يفعل النمر بفريسته... وبوحي الغريزة سعت للافلات من قبضته، وعلى الفور أحاطها بذراعه الثانية، وبدت بسمة وحشية وهو يجذبها إلى صدره وقال:

«هكذا كنّا خلال العاصفة، هناك أشياء معينة لا يمكن التغاضي عنها، موجة المد، والظلام، وهدير العاصفة... وعاطفة الرجل...»

وظنت أنه يعني بكلمة العاطفة، الغضب الذي لا يمكن السيطرة عليه، وأطلقت آنة صغيرة وحاولت مرة أخرى أن تجذب نفسها بعيداً عنه ولكنه قال:

«كفّي عن هذا، واذكري لي المزيد عن نفسك... ما لون شعرك؟»

«شـ... شعري؟»

«أجل كان كالحرير عندما لمسته».

«إنه من النوع البني وبه خيوط ذهبية».

«وما لون عينيك؟ هل تتفقان في اللون مع شعرك؟»

«أجل. إن لونها بني مع نقط من لون أكثر بهتاناً... كهرماني كما أعتقد أنهم يسمونه».

«ذهبي وبني، مثل الزبرجد... أليس كذلك؟»

«ليس هناك شيء غير عادي».

«ما أكثر تواضعك... فتاة يبدو أنها جذابة إلى حدّ غير عادي، لماذا بحق الشيطان تحتاج إلى القدوم إلى جزيرة بولاو ـ إنداه؟ هل رجال انكلترا أكثر عمى مني؟»

«لست من النوع العادي، وأنا أحب الترحال كما قلت لك، أردت البقاء هنا، وكنت ستطردني لو عرفت، انني أقوم بعملي جيداً ولا تستطيع أن تنكر ذلك».

«لا أنكره... ولكنك وأنت تمثلين دورك أيتها الحمقاء الصغيرة تعرفين أنّ كل رجل في هذه الجزيرة سوف يفترض أنك محظيتي، هل أوضحت لك ما أعني تماماً؟ إنّ أهل الجزيرة قوم بسطاء، وهم يعقّدون المسائل العاطفية، فأنت تعيشين هنا تحت سقفي، وأنت فتاة غير متزوجة... وأنا رجل، هل تعتقدين أن رجلاً أعمى ليس له المشاعر العادية للرجال الآخرين؟ إن هؤلاء الناس يعرفونني، وسيجدون من الصعب تصديق أنني أنام في هذا المنزل بمفردي!»

واحمرّ وجهها حتى أحسّت كأنه يحترق.

وقالت لاهثة:

«ولكننا نعرف... أنت وأنا... أنك لم تلمسني أبداً، لم أتخيل أنك غاضب إلى هذا الحد بسبب ما قد يظنّه الناس!»

«وماذا كنت تعتقدين أنه حدث لي؟»

وأحسّت بدوار... وارتياع... إذن فهذه هي المسألة... مسألة آداب المجتمع، وقد قيل إنّ الهولنديين أناس يتمسّكون جداً بالأخلاق.

وقالت:

«وهل يهم ذلك، طالما في استطاعتي أن أكون سكرتيرة لك.»

«هل تعتقدين أننا نستطيع الأستمرار كالسابق، أن أظل أحتفظ بك تحت سقفي، وأن أزعم لنفسي أنك امرأة ناضجة غير عاطفية، تقوم بدور العانس الطاهرة التي

لا يهتم بها الرجال؟ أي نوع من الحمقى تظنينني؟»

«لم أعتقد أبداً أنك أحمق يا سيدي».

وسقط قلبها بين ضلوعها... إذن فهو ينوي طردها... ولكنها بعد أن افترضت أنه لا يدري شيئاً عن صلتها بالحادث الذي أصابه بالعمى، أرادت أن تناضل للبقاء هنا... وقالت متوسلة:

«أرجوك ألاّ تطردني... ليس لدي ما أعود إليه، وأصبحت متعلقة جداً بهذه الجزيرة كثيراً».

«ليس لدي أية نية لطردك».

وقالت وهي لا تصدق أذنيها:

«ماذا؟ ولكنك قلت لتوك إن...»

«لقد قلت إنّ الأمور لا يمكن أن تستمر كما كانت... لقد انتهت التمثيلية، وعليك أن تواجهي عواقب القيام بمثل هذه اللعبة مع رجل بالغ».

وانزلقت يده تحت عنقها، ولوى شعرها على قبضة يده قائلاً:

«شعر حتى الكتفين، وعينان جميلتان... فلماذا لا أريدك؟»

وأحست ميرلين بقلبها يشب بين جوانحها...ولم تستطع أن تصدّق أنها سمعته يقول أنه يريدها، وعاد يقول بصوت أكثر خشونة:

«إنني أريدك؟ نهاري مثل ليلي، ولياليّ موحشة كالجحيم، لقد أخذتك بين ذراعي خلال ثورة العاصفة، فأحسّست فجأة بعاصفة تهدر في أعماقي، اجتاحت معها كل ما كنت أقوله لنفسي، من أنني لن أكون عبئاً على أي امرأة، وأغرقت كل القيود التي كنت أفرضها على نفسي لأنني كنت أرفض أن أكون مجرّد موضع شفقة من أيْ انسان، أجل... إنني أريد شعرك الحريري فوق بشرتي، وجسمك الرشيق بقربي، ينبض بالحياة والشباب والدفء، حتى أعرف أنني ما زلت حياً ولم أدفن في حفرة مظلمة تحت الأرض!»

فقالت ميرلين:

«كفى... كفى!»

ودفنت وجهها في صدره وهي ترتعد فقال:

«ألا ينبغي أن أقول مثل هذه الأشياء؟»

«إن سماعك تتحدّث عن الموت أمر شنيع».

«هناك أوقات يكون العمى فيها مروعاً كالموت، في أعماق الليل، حيث لا شيء غير الظلام... لن أستطيع الأستمرار في ذلك، أريد أن أشعر بامرأة بين ذراعي».

«ولكنك لا تحبني...»

لم تكن ميرلين تقصد أن تقول ذلك، ولكنها كانت تعرف أنه لا يريدها هي، بل مجرد امرأة تجعل الليل أقل صعوبة بالنسبة إليه.

وقال بصبر نافذ:

«ما صلة هذا الهراء العاطفي بنا؟ عندما تقرر فتاة أنها لم تعد تجد فائدة في المدن الكبيرة، وتفضّل الحياة في جزيرة تتخلّف الحياة فيها نصف قرن عن العصر، فهي إذن إما هاربة من شيء ما، أو أنها تبحث حقيقة عن طرق بسيطة، بل وبدائية لم يعد لها مكان في العالم الحديث... فإذا كان الأمر كذلك، وأردت البقاء في الجزيرة، فإن أمامك طريقة واحدة لذلك، وهي أن تصبحي زوجتي».

وعندما جلست وذراعه حولها بدون أن تنطق ببنت شفة، ابتسم ساخراً وقال:

«إنني أعرف أن فكرة الزواج من رجل اعمى ليست فكرة مغرية ولكن ليس لدي وقت لعلاقات غير منتظمة مثل ابن عمي هندريك ولا اتخيّل أنني سأتزوج بالطريقة العادية، وأنا لم أفقد قدراتي الأخرى، حتى إذا كانت عيناي أصبحتا بلا فائدة... ولدي أموال كافية لنا نحن الأثنين».

وأجفلت ميرلين! لقد قال ذلك وكأنها شيء يفكر في شرائه، لعبة يلهو بها... وبرغم ذلك، فقد ابتهجت لاقتراحه الزواج منها، حتى ولو قال إنّ الحب هراء عاطفي، ولم يكن الحب هو الشيء الذي يرغب في مشاطرتها إياه... بل ظلام الليالي.

وسألها:

«لماذا لا تتحدثين؟ هل الصمت هو طريقتك في رفض طلبي؟ هيا... تخلصي من القلق الذي تغمرين به نفسك».

وتحركت ميرلين بين ذراعيه كهمسة الحرير ورفعت وجهها تعرض عينيها وشفتيها ووعد الحب الذي سيطمئنه إلى أن الظلمة تنبض بالحياة وليس جزءاً من القبر وقالت:

«إنني على استعداد لأن أكون زوجة لك».

«هل أنت وحيدة مثلي؟»

«غالباً... إنه ليس شعوراً طيباً».

«إنني أتساءل، هل لديك أية فكرة عن احساسك عندما يأخذك رجل أعمى بين ذراعيه؟ يمكن أن يكون شيئاً مثيراً بطبيعة الحال!»

فأطلقت ضحكة قصيرة، ثم مدّت يدها لتلمس جبهته، وخصلة شعره الشقراء، وقالت:

«لا يستخففن بك الطرب، فإنني لست ملكة جمال العالم».

«إنك في نعومة الحرير وقدسيته... ورائحتك...»

وطوقها بذراعيه، وغمرت أنفاسه وجهها وقال:

«إنني أريدك أكثر من أي شيء، وسيكون علينا أن نرتب الزفاف على الفور».

وسكت لحظة ثم قال:

«إن يقظتي في ظلام الليل تؤلمني كثيراً، ولكنك ستكونين هنا معي بمجرّد زواجنا. وأنا أحذرك بأن هناك نمراً يزأر في أعماقي».

«سيكون عليّ أن أتعلم عدم الخوف منك».

«هل أنت خائفة حقاً... لا داعي للاجابة، فقد أحسسته فيك، وخاصة أثناء الليل. هل يزعجك أنني أعمى؟ هل هذا هو ما يرعبك، فكرة أن تصبحي زوجة لي؟»

«كلا».

«أعتقد أنه صحيح.. إذ كلما كنت أتحدث معه كنت أشعر بنوع من الخوف في جسده.. إنني لن أؤذيك».

فقالت ميرلين بابتسامة خفيفة:

«إنني امرأة.. تعرف الألم».

فسألها بصوت عميق منخفض:

«ما هو السبب الكامن إذن لخوفك؟ أهي حقيقة أن امرأة هي التي سببت ضياع بصري، حتى أصبحت بلا فائدة؟»

قالت وقد جف حلقها:

«أجل.. ربما»

«لماذا ترتجفين.. إنك لست هذه المرأة.. أليس كذلك؟»

ولم تجد كلمات ترد بها، سرت صدمة كهربائية في أوصالها... ولم تستطع أن تكبت صرخة منخفضة من أعماق قلبها.

فقال وهو يضحك برقة:

«لقد كنت أمزح فقط».

ولكن... أكانت هذه مزحة حقاً؟ ألم تلاحظ نغمة ذات مغزى عميق في صوته؟ أحست فجأة بحلم خطير وكأنها معلقة على شفا جرف شاهق، سوف تهوي فيه إلى الجحيم، وعليها أن تواجه ذلك.

وقال بسخرية:

«إنني أعرف سبب قلقك، إنك تريدين كل العبارات الرومانسية التقليدية المعتادة، والوعود بالحياة البهيجة، تريدينني أن أتحدث عن الحب ولو بالكذب... ما هو الحب؟ إنه جزء من الشمس... السماء.. البسمة المفاجئة، ولا صلة له بالعالم المظلم الذي أعيش فيه، الحب هو أن نرى الحب في عيني شخص ما... الحب هو أن نرى وجهاً مشرقاً بالدفء والعجب، كيف يتسنى لي أن أتحدث عن الحب وأنا لن أستطيع قط أن أرى الدليل عليه؟»

فقالت وقد التوى فمها من الألم بسبب صدقه الذي بلغ حد القسوة، عندما قال إن حديثه عن حبه لها سيكون كذباً:

«يمكنك أن تشعر به».

وعاد يقول:

« هل تنوين التظاهر بالحب لي يا ممثلتي الصغيرة البارعة؟»

«هل يجب أن تقول أشياء كهذه يا سيدي؟»

«إن قولها يمنحني قدراً من الارتياح، لقد لعبت لعبة خطيرة مع رجل لا تسيطر عليه الأوهام».

«لم أكن أقصد إلاّ الخير يا بول، ولم أعتبرك في أية لحظة مغفلاً مخدوعاً.»

ثم قالت بصوت يفيض نعومة:

«ألن تغفر لي؟»

فقال بجفاف:

«إنني سأتزوجك... ألا يعتبر ذلك علامة على الغفران؟»

«إن الزواج يمكن أن يعني أشياء مختلفة للرجل والمرأة، عندما تتلاشى بهجة الشيء الجديد، فقد تبدأ في التمني لو أنك بقيت أعزب، وفي أي حال السكرتيرة يمكن فصلها بعد إخطارها بدقيقة واحدة، أما الزوجة فسيكون التخلّص منها أكثر صعوبة!»

«أنت التي يبدو أن لديها تحفّظات، إنني أخافك حقاً، أهو الشعور بالمرارة الذي يكمن في نفسي؟»

«إنني أفهم لماذا تشعر بالمرارة، فأنا لست عديمة الاحساس».

«إنني أوافق على ذلك... فأنت أبعد ما تكونين عن انعدام الاحساس، فالشخص الأعمى يتمتّع بغريزة يعرف بها الناس، ولكن هذا لا ينفي أنك خدعتني، لأنه كان ينبغي أن أعيدك لو عرفت عمرك الحقيقي... فلم أكن لأخاطر بما حدث الآن، وهو أنني سأريدك، وأنك بدافع الشفقة سوف توافقين».

فقالت محتجة:

«إنها ليست شفقة».

«إذن مالذي يجعل رجلاً أعمى جذاباً بالنسبة إلى فتاة؟»

«إنك ما زلت نفس الرجل الذي كنته دائماً. فيما عدا الأذى الذي أصاب عينيك، وأنا أجدك جذاباً».

وأحسّت بالسخونة تسري في جلدها، وانتظرت في خوف سماع سخريته منها. ولكنه بدلاً من ذلك بدا في مظهر غريب يكاد يكون مذهولاً وتحركت شفتاه وكأنه لم يستطع العثور على الكلمات الساخرة التي يمكن أن تصرعها.

وأخيراً قال:

«أنت... أنت غبية صغيرة عاطفية، ولعلك قرأت الكثير جداً من القصص الغرامية من مجموعة ايثيل ديل، حيث البطل المسكين منكوب في أطرافه أو بصره، الأمر لن يكون رومانسيا دائماً معي، فإنني سريع الغضب، وينفد صبري لحلاقة ذقني، وعندما يوضع الطعام أمامي وكأنني طفل كبير. لن يكون الأمر كله قبلات وزهورا!»

«أعرف ذلك... وستكون هناك أوقات تحتاج فيها إلى شخص تنفث فيه غضبك».

«إنني أحس كرجل يخرج من سجنه».

وعانقها بجوع أثار بعض الخوف في قلبها وهو يكاد يسحقها بين ذراعيه، بينما أخذت أنفاسه تلفح وجهها وعنقها الدافىء النحيل. واستجابت له بظمأ، وأحاطت عنقه بذراعيها.

وقال وهو يلصق وجهه بوجهها:

«يا إلهي... أنت حلوة حقاً... إنني سعيد لأنك تحبين العناق».

«إنني أحب أن أعانقك... وهو ما لم أفعله من قبل مع أي رجل آخر».

فقال وهو يضحك برقة:

«قد يكونَ هذا شيئاً لا يصدق... ولكني أصدقك. لقد عملت بين أطباء،

وبعضهم من نوع الدون جوان المخيف، فكيف استطعت الاحتفاظ ببراءتك؟
«إنّ لي مثلي العليا يا بول!»

كانت ترتعش من فرط السرور وهي تشعر بلمساته على بشرة ذراعها الناعم بينما تمتم هو قائلاً:

«وقد تصادف أنني أناسب فكرتك عن العاشق المثالي!»

ثم تسللت نغمة ساخرة إلى صوته، وقال:

«هل يمكنك حقاً أن تقولي ذلك عن رجل عاجز عن رؤية كيف تبدو عينيك عنده يعانقك؟»

وأحسّت بوجهه ولمساته تزداد خشونة. كأنه يحسّ باحباط لأنه محروم من متع مشاهدة وجهها. ولم تقل شيئاً، بل بقيت مستسلمة بين ذراعيه، تركته ينفث جا غضبه واحباطه، مستخدماً إياها لينتزع ذكرى اليوم الذي قيل له فيه أنّ يد مهملة أفقدته نور عينيه.

ولكن على الحب أن يوازن الخوف في قلب ميرلين، لقد أحسّت بأنها أصبحت ضحية مرة أخرى.

وعندما تركها أخيراً، ألقت بنفسها فوق الأريكة الجلدية في تعب وغرقت النجوم التي كانت تلمع في عينيها وسط فيض من الدموع، إنها لا تستطيع أن تجعله يرى مرة أخرى، لا يمكنها أن تعطيه الشيء الوحيد الذي يريده قبل كل شيء، كل ما تستطيع أن تمنحه له هو الحب... وهو لا يريده في الحقيقة. كل م يريد هو جسمها الرشيق الدافئ.

وبينما كانت ترقبه من بين عبراتها، رأته يمر بيده على ساعته ذات الأرقام البارزة.

وقال:

«لقد تجاوز الوقت منتصف الليل، ولا بد أنك متعبة جداً. أنت هادئة جداً. هل أرهقتك بعناقي؟»

«كلا... إنني ملك لك يا سيدي.»

فقال ساخراً في صوت ناعم:

«يا كبش فدائي... غداً سأرسل تاجر مجوهرات كهل يعيش في القرية وأطلب إليه أن يحضر مجموعة من الأحجار الكريمة، حتى يمكننا أن نعدّ خاتماً لك... كما أنه يستطيع أن يحضر بعض اللآلىء لك، فاللآلىء كما أعتقد تكمّل جمال بشرتك».

وانحنى للأمام وربت بأصابعه على وجنتيها وقال:

«عندما يكون على الانسان أن يعتمد على اللمس بدلاً من البصر فإنه يصبح خبيراً. إنني أعتزم ترتيب زواجنا على الفور... ففي هذا العصر الذي أصبحت فيه الخطيئة رخيصة، أعتقد أنني وجدت فتاة تتمتع بالفضيلة».

وانزلقت أطراف أصابعه إلى شفتيها... ووجنتيها، وقال:

«أستطيع أن أحس ببلل على بشرتك. هل كنت تبكين؟»

«كلا».

«لا تكذبي علي، لقد كنت غاضباً... ولكن ليس منك، يا إلهي... لست أدري... ربما كان يجب أن أعيدك إلى بلدك بدلاً من أن أتزوجك... إنني آسف لدموعك».

وانحنى نحوها... وفي تلك المرة كان عناقه بنعومة الحرير، وقال:

«ميرلين... أنت وأنا في شرك واحد، فبرغم أنه يجب أن أتركك ترحلين، فإن الشيطان الذي في أعماقي لن يفتح باب القفص ويتركك تطيرين بعيداً، لقد ذقت القشدة التي في أعلى الحلوى وأنا أريدها كلها، وأنت تريدينني، أليس كذلك؟»

فقالت في همس:

«أجل... إنني أريدك بكل جوارحي!»

«هذا يكفي إذن، هيا لقد حان وقت نومك في فراشك، حتى أضع ذلك الخاتم في أصبعك».

ولم يكن من السهل على ميرلين أن تنام بعد كل ما حدث، وأخذت تتقلب في الفراش من جانب إلى آخر، وقد تبدى لها وجه بول ينبض بالحياة وسط

الظلام، وأحسّت كأن ذراعيه ما زالتا تطوقانها، بينما راحت كل الكلمات التي تبادلاها تمر من جديد خلال ذهنها.

ولم تستغرق في النوم إلاّ قرب الفجر، وعندما استيقظت كان خادم المنزل يدق على المصاريع والنوافذ لتثبيتها واصلاح ما أتلفه الاعصار... وجاء الصبح بعد كل الظلام الممزق، ليرسل فيضاً من الأشعة الذهبية، ولكنها لم تر بعض الخراب الذي نزل بالمنزل وما يحيط به إلاّ بعد أن أرتدت ثيابها وهبطت إلى الطابق الأرضي.

كان البخار يتصاعد من برك الماء بعد أن تسلّقت الشمس فوق الأشجار، والفراشات اللامعة والطيور ترقد محطمة ميتة وسط الوحل، وشجرة من خشب الصندل أسقطتها الرياح، وانبعث منها أريج قوي.

وسارت ميرلين في الحديقة في حزن بين أكداس الطين التي غمرت ساعة الماء، وبركة زهور الزنبق التي كادت تختنق بأوراق الشجر... وعندما توجهت ميرلين إلى المطبخ وجدت الطاهي هناك يعدّ طعام الافطار، وطمأنها على أن أهل القرية على ما يرام وقال لها إنه في ذروة الاعصار، وضعت إحدى السيدات طفلها وقررت أن تسميه طوفان.

ورمقها بابتسامة وقحة مفاجئة وقال:

«هل أنت والسيد على ما يرام؟ أرى أنك أعددت العشاء له؟ هل أكل جيداً؟»

فقالت:

«إن السيد تناول عشاءه بشهية».

وفجأة أحسّت بسخونة في وجنتيها عندما تذكّرت ما قاله بول عن أهل الجزيرة الذين يعتبرونها فتاته. إنّ ذلك لم يخطر ببالها، أما الآن فقد أدركت أنه من الطبيعي أن يظنّوا ذلك، فهم لا يعرفون معنى الحب الافلاطوني، ولكن لديهم فلسفة بسيطة، وهي أن الرجل والمرأة صنع كل منهما للآخر كما صنعت الشمس لكي تنضج الفاكهة!

وفجأة أجتاحتها موجة من أحاسيس عجيبة، سوف تتزوج بول، ويرتب الزواج بدون إبطاء، لقد حدثت المعجزة... ستصبح زوجة بول، وتطلق سراح الحب الذي ملأ قلبها.

ولاحظ الطاهي ما بدا عليها، فقال:

«إن السيدة تبدو سعيداً جداً... هل تمتعتا بالاعصار وحدكما هنا أنت والسيد؟»

«من يستطيع أن يتمتع بذلك؟ لم يكن ممكناً ترك السيد وحده وسط المتاعب، ولهذا بقيت هنا بدلاً من الذهاب إلى أكشاك الشاي مع الآخرين».

«في أي حال فإن السيدة غير آسفة على بقائها، أليس كذلك؟ لقد هبّ الاعصار وهي تعلقت بالرئيس الكبير».

وفجأة بدأ الطاهي يقهقه ضاحكاً من نظرة الاستياء التي رمقته بها ميرلين وقال:

«كل شيء على ما يرام، فكلّنا نعرف لأن السيد أبلغ الغلام الذي يحلق ذقنه واختار له قميصه، وذهب السيد إلى المدينة مع بول ليقابل القسيس بشأن زواجكما، إننا مسرورون جداً، فقد كان ينبغي للرجل الكبير أن يتخذ لنفسه زوجة، إنه شجاع جداً كالنمر، ولكنه أعمى ويحتاج إلى امرأة تحبه كثيراً لكي تخفّف عنه آلامه».

وتأثرت ميرلين من هذه الكلمات البسيطة الصادقة، وأحسّت بارتياح لأن بول جعل العاملين في المنزل يعرِفون أنها ستصبح سيدتهم، ولكن الحقيقة الأساسية هي أن بول يحتاج إليها فعلاً، وهؤلاء الناس يدركون ذلك، ولعلهم يعتقدون أنه أراد أن يفيض شرعية على علاقتها، ولكنها لم تعد تهتم باعتقادهم أنها كانت عشيقته. إن وضع الزوجة شيء مختلف، وفي استطاعتها أن تظهر لهم أنها تهتم بالسيد وتريد بسعادته أكثر من أي شيء آخر.

وقالت للطاهي:

سوف أبذل كل جهدي لابعاد الألم عنه، إنني مسرورة لأن أحداً منكم لم يمانع

في زواجه مني».

فنظر إليها الطاهي نظرة تبدو فيها الحيرة وقال:

«ولماذا تمانع؟ إنك فتاة جميلة جداً، برغم أنك تحبين أن نعتبرك سيدة عجوزاً، وهو أمر عجيب، لأن السيدة العجوز تحب غالباً أن تعتبر أصغر سناً، وليس العكس، ولكن يجب أن تأكلي جيداً وتصبحي سمينة مثل زوجتي، فالسيد يحب ذلك».

وابتسمت ميرلين وجلست أمام المائدة تتناول فطورها. وأثارتها فكرة أن بول ذاهب اليوم إلى المدينة ليدفع عجلة زواجهما... فهل تجرؤ على الاعتقاد بأن في لفتته هذه بعض الحب لها؟

وخلال الساعات التالية راحت تحاول ترتيب ما حدث من اضطراب في انحاء المنزل بسبب العاصفة، وكان بول قد ودّعها بعبارة موجزة وقال أنه سيعود في الصباح، وذهب ليرتب موضوع زواجهما بدون أن يعانقها!

٧ ـ لهب في أعماق القلب

جاء القسيس الذي سيجري مراسم الزواج بالهليكوبتر، وأقيم الحفل البسيط في صالون بيت النمر وبعد ذلك سأل القسيس عما إذا كان يستطيع أن يقول بضع كلمات خاصة للعروس، فتركهما بول معاً.

كانت ميرلين تحس ببعض العصبية وراحت تعبث بأصابعها في خاتم الزواج الجميل والحبس المرافق له، ولم يكن الأب لوكاس أدريان أكبر سناً من بول، ولكنه بدا في ثوبه الأسود وياقته البيضاء الناصعة أقل صرامة، وقال لها:

«أرجو ألاّ يكون لديك مانع إذا كنت أريد أن أقضي بضع دقائق معك بمفردنا».

«كلا على الاطلاق يا أبت، وأعتقد أنني كنت أتوقع ذلك».

«إذن فكل منا يفهم الآخر. إنك أصغر كثيراً من أن تتزوجي رجلاً كفيف البصر. هل أنت من نفس مذهبه الديني؟»

فهزت ميرلين رأسها وقالت:

«إنني تابعة لكنيسة انكلترا».

«هل تعرفين أن الحفل الذي أجريته ملزم تماماً، حتى الموت يا ابنتي؟»

«أجل».

«إذن لا بد أنك تحبين هذا الشاب حباً جماً حقاً؟»

فقالت ببساطة:

«إنني أفديه بحياتي».

«فلنأمل ذلك أيتها الشابة، إذ أن الأمر لن يكون يسيراً بالنسبة إليك، أن تكوني زوجة لرجل ينبض بالحياة وعلى درجة عالية من الذكاء، ساخط بمرارة على ما فعله القدر به وبمستقبله اللامع».

«كان ذلك من فعل امرأة يا أبت».

«إذن فأنت تعرفين ما حدث؟»

«هل أخبرك السيد فان سيتان بنفسه عن ذلك؟»

فترددت ميرلين، وقالت:

«أجل، قال لي.»

«ولكني أعتقد أنك كنت تعرفين ذلك مسبقاً قبل أن تأتي إلى بولاو ـ انداه؟ بل قد يكون هذا هو سبب قدومك، أليس كذلك؟»

كانت عينا لوكاس نفاذتين إلى حد كبير، ويبدو أكثر حكمة ودهاء من أن يقبل قصة مختلفة، وكان على ميرلين أن تعترف بأنها كانت تعرف اشياء معينة عن إصابة بول بالعمى قبل قدومها إلى الجزيرة.

وقال لها:

«هل كنت تحبينه عندئذ؟»

«كنت أعجب به كثيراً كجراح، ولكنني لم أحبه بعمق إلاّ بعد أن عرفته كرجل».

«برغم عاهته؟ إنني مضطر إلى أن اصفها كذلك يا ابنتي، لأن العمى الكامل لا يمكن أن يتجاهله الشخص الأكثر قرباً من المصاب، ولا بد أن يكون حبّك قوياً لأنه سوف يمتحن مرات عديدة... فهل أنت مستعدة لذلك؟»

«أمل ذلك؟»

«إذا احتجت إلى مشورة في أي وقت فتعالي لمقابلتي، وسوف يحضرك الشاب لون ويمكنك التذرع برغبتك في الذهاب لشراء بعض الأشياء من المدينة».

وفجأة افتر وجهه النحيل الأسمر عن ابتسامة قائلاً:

«إن الكذبة البيضاء لا تؤذي كثيراً، أليس كذلك؟»

فردّت بابتسامة قائلة:

«أرجو ألاّ تسبب أي أذى يا أبت».

«الكذبة المتعمّدة هي التي تسبب الضرر. والآن سأذهب إلى عريسك وأبلغه أنك تنتظرينه بلهفة».

«شكراً لك على رِقّتك أيها الأب لوكاس».

«ليس من الصعب أن يكون المرء رقيقاً، مع فتاة تهتم بوضوح بأن يجد زوجها الأعمى قبساً من الأمل والمتعة في عالمه المظلم، كان السيد فان سيتان رجلاً مهماً في ميدانه، وعليه الآن أن يبحث عن أسلوب جديد لحياته، ويجب أن تعاونيه في العثور عليه. باركك الله يا ابنتي، وأتمنى لك البهجة في زواجك».

غادر القسيس الغرفة، بينما أحسّت ميرلين بساقيها تهتزان فألقت بنفسها على الأريكة وأسندت وجنتها على جلدها البارد، وشعرت بضغط خاتم الزواج على وجهها ليؤكد لها أنها الآن زوجة بول فان سيتان، وأنها تستعد لمواجهة المستقبل معه في أمل...

كان الماضي هو الذي لا يتوقف عن مطاردتها... برغم أنها كانت على ثقة من أن الأب لوكاس سيحتفظ لنفسه بأية حقائق قد يكتشفها عنها، من أنها كانت تعمل في نفس المستشفى الذي يعمل فيه بول وكانت تستخدم لقب زوج أمها، ثم عادت إلى اسمها الحقيقي عندما جاءت إلى الجزيرة لتعمل لدى بول. ولو قرأ القسيس تفاصيل المأساة لافترض كغيره أنها هي الجانية وليست كبش الفداء، ولكنه سوف يعتبر أيضاً أن زواجها شيء مقدس، وأنها بحبها لبول وجدت وسيلة لتعويضه بقدر صغير عما حدث له... لقد حذّرها بأن زواجها لن يكون سهلاً، وأن عليها أن تواجه حقيقة أن بول رجل يشعر بمرارة بالغة.

ولم تكن تتوقع أن يكون سهلاً. وكانت تأمل فقط في القليل من حبه، غير أن بول كان متحفظاً ومتباعداً طوال مراسيم الزفاف، وبعد أن وضع الخاتم

الذهبي في أصبعها لم ينحن على وجهها ليقبلها، برغم أنها رفعت وجهها إليه، بل حدّق في ضوء الشمس الذي لا يستطيع أن يميز بينه وبين الظلام!

وتنهّدت وساءلت نفسها عما إذا كان لسلوكه أية صلة بالبرقية التي تلقاها من ابن عمه هندريك، ولم يطلب بول منها أن تقرأها له، بل ذهب هو ولون إلى غرفته الخاصة بينما انتظرت هي في القاعة، حيث أحسّت كأن هناك حبلاً حول عنقها بدلاً من عقد اللآلىء الذي يزينه.

وعندما خرج بول من الغرفة قال في إيجاز أن ابن عمه قد تأخر بسبب سماسرة الشاي وأنه لن يتمكّن من العودة لحضور زفافهما، ولم يقل أن هندريك أرسل تهنئته، مما يشير إلى أن ابن عمه كان غاضباً لأنه في خلال الأسابيع التي ترك فيها بول، التقى بها ورتّب زواجه من المرأة التي استأجرها لتقوم بعمل السكرتيرة له، أو لعل عدم ارسال تمنياته الطيبة يخفي وراءه دافعاً أكثر سوءاً؟

وأحسّت بلمسة على كتفيها فاستدارت بحدّة لتجد بول واقفاً خلفها، وقال: «آمل ألا يكون الأب لوكاس قد قال شيئاً يزعجك يا آنستي؟ إنه ولا شك يعتبر أن زواجك مني خطوة خطيرة في الظلام بالنسبة اليك.»

«لقد كان بالغ الرقة والتفهم يا بول، وتمنّى لنا مخلصاً السعادة معاً».

فأمسك بول كتفها وهو يجلس بجوارها قائلاً:

«لقد كانت مراسم الزفاف كئيبة نوعاً ما، ولهذا آمل ألا تكون قد جعلتك عصبية؟»

«ليس كثيراً».

وراحت عيناها تفحصان وجهه، إذ خيّل إليها أنه يستخدم كلمات ذا معان خفية، وأرادت أن تسأله عما جاء في برقية هندريك، ولكنها لن تستطيع أن تواجه الغضب الذي قد يثيره سؤالها، إذا كان هنالك بعض التلميح، إلى أن بول إنما تزوج الفتاة التي كانت مسؤولة عن ضياع بصره.

وسألته ميرلين وهي تتطلّع إلى الحجر الكريم الذي يرصّع الخاتم في أصبعها:

«هل رحل الأب لوكاس؟»

«أجل، لقد طار الراعي الصالح إلى كنيسته، وأصبحت أنا وأنت الآن مرتبطين بزواج لا رجعة فيه».

وأمسك يدها التي تحمل خاتم الزواج وراحت أصابعه تعبث بالحجر الكريم الذي يرصعه وقال لها:

«أهو جميل كما قال لي الكهل؟»

«إنه أشبه بضوء القمر يا بول، يتوهّج في تألق ناعم».

فتمتم قائلاً:

«مثلك يا فتاتي، هل أنت أيضاً تتألقين في نعومة بهاتين العينين الكبيرتين؟ إنك الآن عروس السيد... الرئيس الكبير الذي سوف يحميك، ويبقيك في الظلام والشك».

«بول... أرجوك».

كانت قبضة يده تضغط بقوة على خاتمها حتى كاد ينغرس في لحم وعظام أصبعها مما اضطرها إلى أن تطلق صيحة خافتة، وقالت:

«ماذا حدث لك؟ لماذا تتصرّف هكذا؟»

«إنك ملكي ويجب أن أحميك، أليس كذلك؟»

«أرجوك يا بول... سوف تحطم أصبعي في لحظة!»

ولكنه ظل غارقاً في أفكاره المظلمة فلم يعر انتباهاً لالتماسها، وعادت تقول والدموع في عينيها:

«لست أدري ما إذا كنت تعرف ذلك يا بول، ولكنك تسحق أصبعي... أرجوك».

لم يكن الألم وحده هو الشيء الذي لا يحتمل... بل الحالة التي كان عليها، إنّ شيئاً ما هو الذي أدّى إلى هذا المزاج القاسي الساخر... وكانت محنة ميرلين بدنية

وعقلية معاً.

«بول... إنني لم...»

فقال مقطباً جبينه:

«ماذا؟ أصبعك... هل كنت أستحقه حقاً؟»

واختفى اللهب من عينيه. وتراخى فكه ببطء، ثم رفع أصابعها إلى فمه وراح يقبلها، وأحسّت بأنفاسه الحارة تلهب أناملها ثم تحسس بأصابعه قلادة اللآلىء التي تحيط بعنقها وقال:

«إنّ لي زوجة... ولكن هل هناك أي أمل حقيقي في أنني أستطيع حمايتك والاحتفاظ بك، ماذا يحدث إذا أصبحت تملّين قيادتي في أنحاء المكان؟»

فوضعت ميرلين يدها على شفتيه قائلة:

«لا تقل مثل هذه الأشياء، هل تعتقد أنني أشعر بضيق لما افعله من أجلك، إنني أريد أن أرعاك وأوفر الراحة لك... وأستطيع أن أرى جمال مظهرك في حلتك السوداء وقميصك الأبيض الجميل».

فقال وأصابعه تعبث بأذنها:

«ما هو مرماك الآن، هل تحاولين اغرائي، أم أنك تخشين أن أحاول مرة أخرى تحطيم أصبعك؟»

«عندما تقول أشياء كهذه تجعلني أرتعد...»

«هل أنت حقاً طفلة بريئة؟ ألم ترتكبي أي خطيئة في حياتك الحلوة؟»

وتفحصت ميرلين وجهه، محاولة أن تقرأ ما يكمن وراء كلماته الساخرة. قد يكون السبب هو عصبيته لأنه لا يستطيع أن يرى كيف يبدو مظهرها... فهي عروسه، والزواج خطوة كبرى للرجل كما هو للمرأة.

وسمعته يقول:

«إن وجهك بارد، هل كان زواجك مني محنة؟»

«أعتقد أنك أنت الذي تعتقد أنه محنة، ففي الظروف العادية لم تكن تحلم

بالزواج من واحدة مثلي، إنني واثقة أنه كان لك صديقات جميلات لديهن الكثير من الحديث الرشيق الذكي، ذوات الثياب الأنيقة».

«ألا ترتدين أنت الآن ثياباً أنيقة؟»

وتحسس ثوبها بأصابعه وقال:

«ما هذا القماش؟ إنه ناعم الملمس... رقيق كالضباب».

فقالت بصوت يرتعش:

«شانتونج».

«وما لونه؟ لا تذكريه لي... سوف أحاول التخمين، إذ لدي إحساس بأنـك لا ترتدين ثوباً أبيض، ولست أدري لماذا؟ هل لأننا لسنا زوجين رومانسيين، بل اثنين وجدا راحة في التعلق معاً في الظلام؟ أعتقد أنك لا بد قد اخترت لوناً عسلياً مشوباً أو لوناً كهرمانياً مثل عينيك غير العاديتين».

وقال متهكماً وأصابعه تعبث بأزرار ثوبها:

«إنك في حالة توتر كلي، كأنما تريدين أن تقفزي بعيداً عني! لقد فهمت من لون، أن أهل الجزيرة سيقيمون مأدبة لنا في ساحة هيكلهم وهم يطلقون عليه اسم هيكل المباهج السبع وسوف يمكنك مشاهدة الصور المحفورة على الجدران لكي تصفيها لي حتى أعرف شكل هذه المباهج».

فقالت وقد احمرّ وجهها قليلاً:

«مأدبة؟»

«لا داعي للقلق، فسوف أجعل همي أن أرضيك يا صغيرتي، إنني أعرف أنك خجولة، ويخيل لي أن هناك خوفاً في عينيك الكبيرتين... هل أن خائفة من أن يلتهمك النمر؟»

«كلا بطبيعة الحال، إنني لست طفلة يا بول».

فتمتم قائلاً:

«طفلة! لقد تزوجتك لنفسي ولا أنوي أن أدع أحداً يشاركني فيك، هل فهمت؟»

«هذا حقك».

وازدادت التصاقاً به بدون وعي... فضمها بقوّة لحظات طويلة، ثم ابتعد عنها قائلاً:

«هذا يكفي الآن. إننا مدعوان لحفل تكريم بمناسبة زواجنا كما قلت لك، وسوف يشعر أهل الجزيرة بإهانة إذا لم نحضر، وأعتقد أنه يسرهم أن ترتدي الثوب التقليدي لعرائس الجزيرة، لذا طلبت من لون أن يحضر لك كاين وهي تنورة طويلة تلتف حول الجسم من الحرير الناعم، و كيبايا وهي سترة من الدانتيلا، واحتفظي بلآلئك... وضعي هذه أيضاً».

وأخرج من جيبه شيئاً صغيراً ملفوفاً في ورقة رفيعة، وعندما فتح اللفافة الصغيرة ظهرت أسوارة ذهبية ذات ثلاثة أجراس صغيرة من الذهب، وقال:

«أعطني رسغك لأضع هذه حوله... إن الأسوارة لا يمكن فتحها بعد اغلاق قفلها الصغير، والآن سوف أعرف دائماً أين أنت».

وحدّقت ميرلين في دهشة إلى الأسوارة ذات الأجراس وهتفت قائلة:

«إنها جهاز للرقيق... ماذا تظنني يا بول؟ هل تعتقد أنني سوف أفر منك؟»

فأطلق ضحكة قصيرة وقال:

«إنهم يقولون... حيث توجد الأجراس لا توجد الشياطين!»

فقالت متسائلة:

«أهي عملية سحر صغيرة لي؟»

كانت في أعماقها مقتنعة بأن برقية هندريك قد تضمّنت إشارة ما إليها باعتبارها المرضة المسؤولة عن ضياع نور عينيه. وأحست بألم عميق لأن بول يعتقد كالباقين أنها قادرة على أن تسبب له آلاماً. إن كل ما تريده هو أن تمنحه السعادة.

وقالت له:

«اخلعها يا بول... لا أريد أن أضعها، كأنني قطة صغيرة قاسية تمزق رقاب

الطيور».

«إنها مجرد قطعة من الحلي، فلا تطلقي لخيالك العنان».

وشرعت ميرلين في النضال لخلع الأسوارة، ولكنها كانت ضيقة جداً، وكانت الأجراس تصدر موسيقاها المجنونة وهي تحاول التخلص منها.

وصاح بول وهو يطبق بأصابعه الحديدية على يدها:

«كفي عن ذلك، أريدك أن تضعي الأسوارة وهذا يكفي، إنها تعويذة أيتها الغبية الصغيرة، لحمايتك من الشر».

ورفع رسغها إلى فمه وقبله.

واستطاعت ميرلين أن ترى من وضع فكه أنه مصر على بقاء الأسوارة حيث وضعها تماماً، فقالت:

«أستطيع أن أرى أي نوع من الأزواج ستكون، وهكذا فإنني سأسير وأجراسي تدق كبعض فتيات الرقيق في حريمك، أ تريد وضع واحدة أخرى في كاحل ساقي؟»

فضحك قائلاً:

«إن لك أحياناً لساناً لاذعاً كبرتقالة مرة، ألا تعرفين أنني عندما أسمع هذه الأجراس الصغيرة في الليل عندما تنقلبين إلى جواري، سأعرف أنني لست بمفردي في تلك الحفرة المظلمة، التي لم أطلب منك أن تعيشي فيها... هل تحرمينني من المتع البسيطة بسماع هذه الموسيقى الناعمة على ذراعك النحيل؟»

فقالت بصوت يكاد يختنق:

«أواه يا بول... إنني لم أفكر في الأمر بهذه الصورة... سوف أضع جرس بقرة يا عزيزي إذا أردت مني ذلك... إنني استحق ذلك».

«إنني أسمع خطوات أقدام قادمة في القاعة الآن، أعتقد أنه ليون وقد أحضر ثوبك... هل تراهنين على ارتدائه؟»

«سوف أرتدي ثوب عرائس الحزينة، وأحاول أن أبدو كواحدة منهن قدر

استطاعتي».

«أجل... افعلي ذلك، واسدلي شعرك على كتفيك وضعي زهرة زنجبيل فيه أنني أحب رائحة الزنجبيل».

وابتسمت ميرلين للشاب الاندونيسي النحيل، الذي يقف داخل عتبة الباب وهو يحمل ثياباً من الحرير والدانتيللا على ذراعه، وانحنى لها قائلاً:

«اسمحي لي أن أتمنى لك أعظم بهجة يا سيدتي».

«إنك رقيق جداً يا لون، هل أستطيع أن أرى ماذا أحضرت لي؟ وأسأل من هي التي تكرّمت باعارتي إياها؟»

فقال وهو ينظر إلى عينيها:

«إنها لك، ألا تعلمين؟ لقد أرسلني السيد إلى حانكة الثياب التي صنعت أشياء أخرى لك وقد انتهت من حياكتها، إنها جميلة جداً... أليس كذلك؟»

وقال بول وهو يشعل سكاراً:

«القماش الحريري المطرز بخيوط فضية؟»

وهتفت ميرلين:

«بول... ألن تتوقف عن إعطائي أشياء كثيرة؟»

«هل تحبينها؟»

«رائعة، إن التنورة في لون حجر القمر الذي يزين خاتمي، وهناك سترة جميلة وصندل ملون، إنني لا أستطيع الانتظار لارتدائها».

فقال بول:

«أعطها إياها يا لون، والآن اذهبي وارتديها يا ميرلين».

كان لون لا يزال يتفحّص وجهها وهو يسلمها الثياب، وقد رمقته بنظرة تساؤل. وقد بدا بعض الخوف في عينيها وهي ترى اتهاماً أسود في نظرته، لكنّ عينيه المائلتين لم تكشفا لها الكثير، كما كانت ابتسامته لغزاً.

وقال بول:

«يؤسفني إنني لا أستطيع أن أقوم بدور خادمك الخاص، هل يمكنك أن ترتديه بمفردك؟»

«يا عزيزي لست طفلة».

ودوى رنين الأجراس الصغيرة في أسورتها وهي تهرع صاعدة الدرجات إلى غرفتها، وأمسكت ميرلين الثوب الوطني بين ذراعيها وخرجت إلى الشرفة ترقب الشمس وهي تغرب، وأحسّت بالسحر البدائي للمساء، والأريج العطر الذي يملأ جنبات وادي الشاي.

وعادت ميرلين إلى غرفتها، حيث خلعت ثوب زفافها البسيط وارتدت التنورة الحريرية اللامعة والسترة المزركشة بالدنتيللا الناصعة البياض، ومشطت شعرها الذي ينساب كالشلال فوق القماش المطرز بالفضة، وكانت الأضواء الكهرمانية والعسلية في شعرها تتفق مع لون عينيها، فتجعلها تبدو مضيئة.

كم كانت تتمنّى لو استطاع بول أن يراها في هذه الصورة! وما أبعد الفرق في مظهرها الآن عما كان يوم كانت طالبة تمريض تحلم بأن بول قد يلاحظ وجودها!

الليلة سوف يراها أهل جزيرته في مظهرها الرائع، وستكون هناك موسيقى وضحكات، وأمنيات طيبة صادقة، ولكن كل ذلك لم يشغلها عن التفكير في برقية هندريك وهل كشفت حقيقة شخصيتها لبول! هناك شيء ما في البرقية أثار في ميرلين شعوراً منذراً بالسوء!

وفجأة سمعت صوت أصابع تطرق بابها، فارتعدت أعصابها وهي تستدير عن المرآة، وترى باب الغرفة يفتح، ودخل توتوب وقد كشفت ابتسامته الواسعة عن أسنانه البيضاء، ومدّ يده بزهرة قرمزية جميلة قائلاً:

«لقد طلب مني السيد أن أعطيك هذه، زهرة الزنجبيل لكي تضعيها في شعرك».

وابتسمت ولكن شفتها كانت ترتعش بعصبية وهي تأخذ الزهرة... إن لونها القرمزي أشبه بالدم، ولها رائحة التوابل التي تبعث الحياة في أعماق الغابة، حيث

بجوبي النحور بحثاً عن الفريسة...

وسألت الغلام الأسمر:

«ما رأيك في ثوبي يا توتوب؟ هل أبدو كفتيات الجزيرة؟»

«إنك تبدين جميلة جداً، وسأقول ذلك للسيد حتى يسر، وسأقول له إنّ السيدة تبدو كراقصة الهيكل، ترن أجراسها بالموسيقى كلّما حركت يديها، وشعرها أشبه بجناح صقر بري».

وحدقت ميرلين في الغلام وقد أذهلتها الصورة التي وصفها بها، هل هي تبدو كذلك حقاً؟ إنها لا تصدق ذلك، ولكنها تركت توتوب ينطلق إلى بول بهذه الصورة عنها، فلا ضرر من ذلك.

وشقّت طريقها نحو الطابق الأرضي بثوبها الحريري الذي جعلها تسير كإحدى فتيات الجزيرة، ولم تكن هناك طريقة لمنع هذا الرنين الناعم الذي ينبعث من الأجراس المعلقة في رسغها، وسمعها بول، فاتجه نحو أسفل درجات السلم وأمسك بيديها، وكأنه يراها!

وكان هو الآخر قد خلع حلة زفافه الرسمية وارتدى قميصاً حريرياً أبيض اللون مفتوح الصدر، جعله يبدو قوياً رشيقاً، مثيراً إلى حد لا يحتمل بالنسبة لمارلين، وقال:

«لقد أبلغني توتوب أنك تبدين رائعة جداً في ثياب الجزيرة، مثل راقصة الهيكل»

«إنني واثقة من أنني أبدو في شكل مضحك، وكل ما يلزم لكي تكتمل الصورة هو بعض الكحل الأزرق حول عيني!»

«كلا... إن لدي فكرة بأنك تبدين الآن كما تشعرين في أعماق روحك، نادرة وعجيبة، واحدة من عشاق الحب!»

وتمتمت قائلة:

«واحدة من عشاق الحب!»

«أجل يا عزيزتي، إنني رجل محظوظ أليس كذلك؟ فلا حاجة بي إلى أن امل في العاطفة مع عروستي، إذ أعرف أنها موجودة. إن من حقائق الطبيعة الغريبة أنه كلما بدت المرأة أكثر بروداً، كان ما تحت جلدها الشاحب البارد حرارة! مثل النار في الماسة، اللهب في أعماق القلب».

«هل العاطفة هي كل ما تطلب مني يا بول؟»

«في الوقت الحاضر، لا نتناقش حول المستقبل... بل نعيش من أجل الليلة!»

إنه يعدها بالجنة... وبالجحيم، كانت تريد أن تتوسل إليه أن يصدق أنها لم تعرف قط أنها ستؤذيه.

وسارا معاً في طريق تحف به أشجار البن في اتجاه الهيكل، وتركت بول في سكون يقودها إلى ساحة هيكل الباهج السبع حيث كانت ألسنة اللهب تتراقص من النيران المشتعلة وأصوات الطبول والناي المصنوع من الخيزران تطلق موسيقاها الغريبة.

ودخلت ميولين إلى المهرجان وكأنها تسير في حلم، وركعت على حصيرة منسوجة مع بول بينا قدمت القرابين الرموز... وأيقظت الموسيقى الحمائم التي تعيش في أفاريز تمثال التنين بالهيكل، وشاهدت ميولين رفيف أجنحتها البيضاء في ضوء النيران، وسمعت رنين الأجراس الصغيرة المربوطة بسيقانها، ولاحظت حركة رأس بول وهو يستمع إلى صوت الأجراس الطائرة، وفكرت فيما قاله لها عندما أقفل الأسوارة حول رسغها، الحقيقة الوحيدة تكمن في تحذيره لها بأنهما لا يفكران في المستقبل بل يعيشان فقط من أجل الليلة!

صنعت أهرامات من الأطعمة والفاكهة في أطباق واسعة، وبينما يتناولان طعامهما إلى جوار رئيس القرية وزوجته، بدأت الراقصات في تقديم رقصاتهن وقد صبغت أقدامهن وأيديهن بالألوان التي كانت تتألق في وهج مصابيح المهرجان الحمراء.

وابتسمت النساء لميولين وأقبلن نحوها في خجل للربت على يديها وقدمن لها

السعادة والبهجة، وقدّمن لها عدة هدايا جميلة.

وفجأة انحنى بول نحوها، ولمس وجنتها بيده ثم اقترب من أذنيها قائلاً: «هؤلاء الشبان يقولون لي أنك تبدين في ثوبك الفضي، وكأن القمر قد قذف بك إلى سرادق هذا الهيكل... لقد أبلغت أنني بعد أن ظللت وحيداً خلال ألف قمر، جلب لي القدر يمامة بيضاء!»

لم تنطق ميرلين بكلمة واحدة، إذ أحست بأنفاس بول تلفح وجهها، وكأنه سعيد باعجاب الآخرين بها، وأخيراً قالت:

«أواه يا بول، كم أتمنى أن تتمكنَ من رؤية هذه الأشياء الرائعة. الراقصات والزهور، الثياب الجميلة... وددت لو أمنحك عيني!»

تجمّدت قسمات وجهه عندما قالت ذلك، ثم شاهدت عضلة تهتز في فكه وهو يقول:

«هل تعنين ذلك حقاً؟ ولماذا؟»

فقالت ببساطة:

«لأنني أريد ذلك فقط».

فقال بصوت ثائر:

«لا ترثي لحالي، إنّ الحدّ الأقصى لاحتمالي لم يصل إلى هذا الارتفاع... هذه ليلة زفافي وقد قلت لك ماذا أريد منك!»

فقالت وهي تحني رأسها:

«أجل يا سيدي».

إنه لا يريد إشفاقاً... أو ما يكنه قلبها له. فقط يريد جسمها واحساسه بها ورائحة شعرها، يريد عاطفة حارّة تحطّم الظلام الذي حوله للحظات خاطفة. وعليها أن تفعل ذلك بعد أن أيقظت في نفسه شيئاً ناضل لابعاده عن حياته العمياء. كان قانعاً منذ شهور طويلة ببقائه وحده في ظلامه المرير، ولكن عندما اجتاح الاعصار الجزيرة وضمّها بين ذراعيه أشعلت اللهيب الخامد! وهو الليلة

يريد أن يشتعل بذلك اللهيب ويتوهج.

وبينما كان الحفل يجري من حولها، كانت هي تمتع عينيها بالنظر إلى رأسه ووجهه، وقد ساعدت موسيقى الجزيرة على إلهاب وجدانها وأحسّت بالدماء تثور في عروقها، وعظامها تكاد تذوب وهو يضع إحدى ذراعيه حول خصرها الحريري الأملس... وأطعمها بيده بعض المحارات الصغيرة، وأصرّ أن تشاطره احتساء كأس من شراب حليب جوز الهند الصافي، قائلاً إنه جرعة المحبين.

وبدا أنه لا يهتم بأن الجميع يرونه وهو يغازلها، ولاحظت ميرلين أن أهل الجزيرة كانوا سعداء بما يبديه حيالها من اهتمام، وغمغم هو بعد قليل قائلاً:

«سوف ننصرف سريعاً، ولكن سيكون هناك احتفال معينّ قديم قدم هذه الجزيرة وسوف تقدمين له».

فقالت وهي تلهث:

«أقدم إلى ماذا؟»

«إنه أحد الطقوس التي يتوقع أن تتحمّلها كل عروس في الجزيرة... وأؤكد لك أنه لن يكون مؤلماً جداً».

«بول... إنك تثير خوفي».

«هل أنت خائفة حقاً من هؤلاء الناس غير المعقدين أكثر مما تخافين من نمرك؟»

«نمري؟ هل ستلتهمني حقاً... لحماً وعظاماً؟»

«لن تستطيعي أن تعرفي ماذا سيفعل النمر».

وأمسك يدها ووضعها على وجهه... ثم لعق باطني أبهامها بخفة، فلهثت بصوت مسموع، بينما قال بول:

«إن لك مذاقاً لذيذاً، إنني أشعر بجوع لكي آخذك إلى بيت النمر بسرعة، ولكن يجب أولاً أن يمرح هؤلاء الناس معك».

«ماذا تعني يا بول؟»

فقال ضاحكاً برقة:

«انتظري وسوف ترين!»

ولم تنتظر ميرلين طويلاً، إذ سرعان ما أقبلت مجموعة من الراقصات الضاحكات من بين الأشجار، وبعد أن ألقين باقات من الياسمين المخملي حول عنقها أخذنها بعيداً عن بول، وسمعته يضحك مع بعض الرجال الآخرين متجاهلاً صرخة الخوف التي أطلقتها وهن يرفعنها إلى أعلى، بينما قام بعض الراقصين الرجال بلفها من رأسها إلى أخمص قدميها في قماش حريري أحمر حتى أصبحت أشبه بالشرنقة.

وقالت متوسلة:

«ماذا تفعلون؟ أرجوك يا بول...»

ثم رأت وجه لورن الأسمر فوقها وقد بدت ملامحه في ضوء النيران أشبه بشيطان يبتسم وقال لها:

«إنها التقاليد يا سيدتي، حيث جرت العادة منذ زمن بعيد أن يقوموا بحمل الجارية المفضلة إلى فراش سيدهم، لا تخافي فلن أحداً لن يؤذيك ألا تسمعين ضحكاتهم؟»

ألهذا من أجل بول؟ إنها مستعدة لأي شيء من أجله... وبضحكة أشبه بالنحيب استسلمت ميرلين لهذه الطقوس، ووجدت نفسها تحمل بسرعة في اتجاه بيت النسر، ووسط الضحكات أدخلوها إلى غرفة بول وأرقدوها على الغطاء الحريري السميك لسريره الخشبي الكبير... وانصرف الجميع، وتركوها في شرنقتها الحريرية بلا حول ولا قوة كهدية ملفوفة لبول.

وفجأة وجدت نفسها تضحك من هذه اللعبة غير المعقولة، وكانت الضحكة لا تزال على شفتيها عندما جاء بول إليها، وعندما انحنى ووجدها ملفوفة في القماش الحريري قال:

«لقد لعبوا معك حقاً، هل ضايقك ذلك كثيراً؟»

«كلا... ولكن هل يمكنك إخراجي من هذه الشرنقة؟»

«دعيني أرى».

ونزع الغطاء الحريري من حول جسمها وقذف به بعيداً، ثم انحنى عليها وعانقها هامساً:

«إنك جميلة جداً... أشبه بقطة صغيرة... هل يضايقك كثيراً أنني لا أستطيع أن أرى ما أستطيع أن أتحسسه فقط؟»

«ليس هناك ما يضايقني يا بول طالما كنت سعيداً معي».

«أجل... إنني سعيد، ألا يمكنك سماع دقات قلبي، اقتربي مني يا صغيرتي، دعيني أتحسس قلبك...»

وأحست بخفقات قلبه... القلب الذي ظلّ وحيداً خلال شهور من الظلام الحالك، أصبح يتوقّد الآن بحرارة اللهيب وهي تذوب بين ذراعيه، مردّدة اسمه...

«بول... بول!»

٨ - بحر وقمز في العروق

استيقظت ميرلين لتجد نفسها بين ذراعي بول وقد أصبحت جزءاً منه... وتحرّك فضغطت على كتفه وهمست باسمه. فقال بصوت منخفض:

«لقد جعلتني أرى، وخيّل إليّ في لحظات السعادة أنني تحررت من كآبة الظلمات، أنت ساحرتي البيضاء الصغيرة... لقد سحرتني وكل ما أريده هو أن أشعر بك معي».

فمرّت بيدها على كتفه العارية وقالت:

«يجب أن نتناول بعض الطعام يا بول، إننا لا نستطيع أن نعيش على الحب».

فقال وهو يدفن رأسه في عنقها:

«ولكن... يا لها من طريقة رائعة للموت...»

كانت روحها ترفرف على أجنحة السعادة وهي إلى جواره، إلى جوار الرجل الذي تحبه.

ونظرت إلى وجهه فخيل إليها أنه ازداد شباباً بعد أن وجد من يشاطره الظلام الذي يعيش فيه، لقد جعلته يحس بالحب الذي لم تكن تجرؤ على أن تبوح به، خوفاً من أن يفاجئها بأنه يعرف أنها المرأة التي أفقدته نور عينيه، لقد أقسم أن لا ينجب أطفالاً لأنه لن يستطيع رؤيتهم. ولكن ميرلين كانت تأمل في أن يكون لها طفل، إذ أنها بعد أن تصبح أماً لابنه قد يغفر لها، ولو قليلاً... ووجدت نفسها تصرخ فجأة:

«بول... يا إلهي... إنني لم... لم...»

وظل راقداً في سكون وقد دفن رأسه حيث كان قلبها يهتز بشدة تحت بشرتها الرقيقة... ثم تمتم قائلاً:

«لقد... فعلتها يا حبيبتي»

وأحست برأسها يدور... والعالم يتساقط شظايا من حولها... وازداد وجهها المتوتر شحوباً، وهو يرفع نفسه على مرفقيه، والتقت عيناها بنظرات عينيه التي لا تحتمل، برغم أنهما خاليتان من الابصار... كانت هناك طعنة في جنبها أشبه بسكين حادة نفذت فيه، وسمعته يضحك ضحكة أقرب إلى التنهد وقال:

«أليس مما يثير السخرية أنني احترق رغبة فيك، وأريد أن أقتلك، وفي الوقت نفسه أكاد أجنّ بك وأريد حبك! عليك اللعنة... لماذا جئت إلى هنا؟ ألكي تحاولي اصلاح خطأك؟ كنت تبدين دائماً كالساحرة وأنت تتنقلين في غرفة الجراحة بهاتين العينين الفاجرتين!»

فقالت وهي تحاول التخلّص من ذراعيه:

«يا إلهي... ماذا تقول يا بول؟»

وهتف يقول:

«عليك اللعنة أيتها الباحثة عن المتعة فقط!»

كانت الكلمات قاسية، حارقة، وبدت عضلات وجهه أشبه بالفولاذ، وظلت راقدة في مكانها في صمت مخيف غير قادرة على فهم كلامه وأخيراً قالت:

«هذا غير صحيح يا بول...»

«بل حقيقي تماماً. كانت عندي أشياء أخرى أفكر فيها خلال تلك الأيام، أما الآن فالأمر مختلف. لقد حصلت عليك أيتها الساحرة الصغيرة المتآمرة وسيكون هذا مفيداً لك طالما كنت أريدك، ولا شك أنك تعرفين كيف تجعلين الرجل يرغب فيك؟ أجل... لقد سمعت من زملائي الأطباء كم كنت ممتعة في ساحة وقوف السيارات، ولكنني لم أحلم قط أنك بهذا الجمال... وإذا تساءلت عن السبب الذي جعلني أتزوجك، فهو أنني لم أتسلّم برقية هندريك عنك إلاّ في لحظة زواجنا

تقريباً. وكان القسيس هنا. منتظراً القيام بمراسم القران. قولي ان تربيتي الدينية
أو روح السخرية هي التي جعلتني أتزوج المرأة التي جعلتني أعمى!»

أخذت ميرلين تحدق في وجه زوجها الذي كان يفيض بالمرارة. وأجفلت
عندما أمسكها من شعرها ورأت الرغبة المشوبة بالكراهية تشتعل في عينيه
وقال في سخرية:

«إن أكثر ما أثار دهشتي هو أن أجد أنك ما زلت عذراء. فقد توقعت أن تكوني
كاذبة في هذا كما كذبت في كل شيء... إذن كنت تثيرين الرجال فقط أملاً في أن
يضع أحدهم خاتماً في أصبعك... يا إلهي، كان يجب أن أضع يدي حول عنقك
وأخنقك... هنا... الآن، ولكن هذا سيكون بمثابة قطع أذني لكي تتمشى مع عيني
اللتين لا فائدة منهما... لماذا أفعل ذلك في حين أنني أشعر بقدر من البهجة عندما
أتحسّس عنقك الجميل! إنني أكره مجرد التفكير في شخصك، ولكنني أشعر
بالرغبة فيك... وسأظل أحتفظ بك طالما كنت أريدك، ولكن في اللحظة التي أفقد
فيها هذه الرغبة فسوف ترحلين عني!»

كانت عيناه تتوهجان بالنيران وهو يوجهها نحوها قائلاً:

«هل أوضحت نفسي تماماً وفهمت ما أقصد أيتها الفاجرة؟»

وارتعشت ميرلين لسماع الكلمة، وقالت:

«بول... يجب أن تصغي إليّ...»

ولكن حلقها غص بالكلمات، وحاولت مرة أخرى:

«أرجوك... لم يكن ما حدث بالطريقة التي تظنها...»

فقاطعها قائلاً:

«إنني أعرف ما حدث بالضبط وفّري تفسيراتك التي تستدرّ الدموع لقد كنت
هناك عندما أخرجوا هذا الوحل من عيني ولم أعد أرى شيئاً. أيتها الملعونة أنت
لم تفقدي رجلاً بصره فحسب، بل أصبت بالعمى شخصاً كان في امكانه أن
يصبح ذا فائدة للناس... أما الآن... فمن أنا؟ متسكع على شواطىء جزيرة

يعيش فيها كالمنفي؟ سوف تشاطرينني ذلك كل ساعة وكل يوم وكل ليلة! سوف تدفعين الثمن يا لعبتي ذات البشرة الحريرية!»

كانت ميرلين تحسّ وكأن أصابع حديدية تغوص في عنقها وتشل عضلاتها، وتذكّرت ما حدث أثناء التحقيق معها. لقد خلط بينها وبين الممرضة الأخرى، ولا سبيل لجعله يغير رأيه عنها، إذ لا بد من شخص يلام على ما حدث له، وها هي الآن ترقد بين ذراعيه، تحت رحمته!

وعاد يقول:

«أنت الآن خائفة أليس كذلك؟ يا إلهي كم كنت ممثلة بارعة ليلة أمس؟»

فقالت محتجّة:

«لم أكن أمثّل، لم أكن أعرف كيف...»

«سوف أفعل معك مثلما كانت محاكم التفتيش تفعل في العصور الوسطى... عندما يغرسون المسمار حتى يصرخ الضحية طالباً للموت، بدلاً من أن يعاني لحظة أخرى من لحظات الألم الحي».

وتدحرج على ظهره، ثم أسند رأسه على وسادته، بينما راحت تدرس وجهه وتتساءل، عما يكمن تحت سطح عقله المدرّب المثقف من غرائز ذات طبيعة أكثر سواداً. لقد تعلم في المدارس اليسوعية حيث ترسخ عقائد من ماضي محاكم التفتيش، فهم يعتقدون أن الألم خلاص الروح، وإذا كان بول لديه نفس الاعتقاد فإنه سوف يعذبها، لأنه يعتقد بقوة أنها سبب عذابه، المرأة التي نزعت بصره كما فعلت دليلة بشمشون.

وقال بعد قليل:

«أشعر بأشعة الشمس، لا بد أن الصبح قد أقبل منذ مدّة».

«إن الشمس تسطع في الغرفة يا بول».

ولكنه قال وكأنه لم يسمعها:

«إنني أتساءل... إلى أي حد تتصوّرين أنني غني؟»

«لم أفكر في أموالك!»

«إنني لست غنياً، ولكنني في حال ميسورة، كما يقولون في انكلترا... لقد تركت لي جدتي بعض المال الذي يكفي، ولكنه ليس ثروة، هل خاب أملك كثيراً؟»

فقالت في توتر:

«إنني لا أهتم قط إلاّ بشخصك».

فقال ساخراً:

«لا تقولي إنك تزوجتني من أجل الحب؟ هذا أكثر مما أستطيع ابتلاعه... كلا، لقد جئت إلى هنا لتتمّي ما بدأته، وكل ذلك لأنني كنت الرجل الوحيد الذي لم يكن يدير رأسه كلّما مررت بجواره في ثوب الممرضة، فلدي أشياء أفضل من أن أهتم بايماءاتك، أما هذه الأيام والليالي فلم يعد لدي ما يشغلني، لدي الآن كل الوقت الذي في العالم لكي أعطيه لك أيتها الشيطانة الصغيرة».

كان الأمر شيئاً لا يكاد يصدّق، ولكنه حقيقي... لم تكن ميرلين إلاّ شبحاً بالنسبة إليه ومن المستحيل وهو أعمى تماماً أن يتصوّر أنها حقيقة، لقد تخيّلها في صورة الممرضة الأخرى... وبرغم أنه نفى اهتمامه بها، إلاّ أنه لاحظها فعلاً، ولكنه كان مشغولاً بعمله إلى حد أنه لم يظهر اهتمامه، ويبدو أن الممرضة التي غاظها هذا التجاهل والمعاملة الفاترة، قد انتقمت منه بهذه الطريقة الحاقدة التي لا يمكن غفرانها.

كانت أكثر الأشياء قسوة في نفسها، إن ميرلين نفسها لم تكن تعني شيئاً بالنسبة إليه على الاطلاق...

ومدّ يده حتى وجدها... فقال:

«ما أهدأك الآن».

قالت وهي ترتعش:

«بول أليست هناك طريقة... أية طريقة لنسيان الماضي؟»

فقبض بيديه عليها بشدّة آلمتها وقال:

«لا أريد أن أنسى، بل أريد أن أتذكَّر كل تفاصيل علاقاتنا الساحرة! لأنني مؤمن تماماً بأساطير الشيطان! وأنت أمهر شيطانة ادعت أنها ملاك!»

وتحسس وجهها بيده ثم جذبها نحوه، وعندما أحست بذراعيه كانت استجابتها حارة بدون وعي، وارتعدت وهي تسمعه يضحك بنعومة ويقول:

«إنك جميلة جداً وشعرك رائع، فلا حاجة بك لأن ترتعشي بين ذراعي».

ثم دفعها بعيداً عنه، وقفز من الفراش، حيث مدّ وجذب رداء من الحرير الأسود يشبه الكيمونو الرجالي وضعه على جسمه، وظلت قابعة تحت أغطية الفراش المطرزة، وهو يتجه إلى الحمام الملحق بالغرفة، وعندما أغلق الباب خلفه، راحت تدور بعينيها في أرجاء الغرفة التي قضت فيها ليلتها. كانت الغرفة فسيحة. أثاثها فاخر منحوت من أخشاب الغابة، والأرضية من خشب الساج الطبيعي، ولكنه لم يكن مصقولاً وبدون سجادة حتى لا تنزلق قدما بول أثناء سيره.

وراح ذهنها يسترجع سيل الاتهامات، والمداعبات التي تدفقت عليها من بين شفتيه... إنها تحبه، وتتمنى أن تكون محبوبة... وقالت لنفسها ما أروع أن ترى بول يخرج من الحمام وعلى وجهه ابتسامة حلوة... ابتسامة رجل يريدها بقلبه.

وهمست باسمه كأنها تبتهل... بول... هل من الممكن أن تعيش معه وفقاً للشروط التي أملاها عليها؟ مدركة أنه يشعر بمتعة كلّما وصفها بالشيطانة، وأنه لا يريد منها إلاّ شيئاً واحداً، حتى إذا بدأ جسمها يفقد سحره بالنسبة إليه. فماذا تنتظر؟ إهانة بلا ليل حنون يشفي جرحها؟ أم طردها من الجزيرة باعتبارها سلعة رخيصة؟

وعاد إلى غرفة النوم وقد ابتل شعره، وقال:

«لقد أمرت باعداد الافطار، قهوة ساخنة وبيض مضروب بالزبدة وخبز وعسل أبيض... أيناسبك ذلك؟»

«جميل».

وراقبته وهو يتجه نحو مائدة الزينة ويمسك مشطاً محاولاً تصفيف شعره

الأشعث فقالت:

«هل أقوم بذلك... إنني أعرف أن خادمك يفعله عادة لك».

فاقترب من الفراش وجلس بجوارها وسلّمها المشط فأخذت تمشط شعره بعناية، وقالت:

«أعتقد أنك تحبه بهذه الصورة، هل كل الهولنديين ذوي شعر أشقر مثلك؟»

«نسبة كبيرة منهم».

وبدا أنه يحدّق فيها بعينيه وقال:

«إنك مجموعة مركبة بها بعض الأشياء الجيدة، لا أستطيع فهمك... فأنت تتصرفين وكأنك حلوة وطيبة، ولكني أستطيع أن أهزك حتى أحطم عظامك. هل تعرفين ذلك؟»

فانزلقت عائدة تحت أغطية الفراش وهي تقول:

«أجل أعرف... ولكن لماذا طلبت من ابن عمك أن يقوم بالسؤال عني؟»

«إن كوني أعمى لا يحوّلني إلى كتلة صماء، وبعد الاعصار بدأت أتساءل... حسناً... لقد انتهى ذلك الآن... ووقع الضرر... ونحن نعيش معاً إلى أن أصبح غير قادر على احتمال كذباتك ولمس يدك».

«لماذا تقول هذه الأشياء الرهيبة يا بول؟»

فقفز صائحاً:

«بحق السماء... كفي عن تصنّع الاهتمام بي، إنك تعرفين حقيقة العلاقة التي تربطنا».

فقالت:

«هل أستطيع أن أرى البرقية التي بعث بها ابن عمك؟»

«ولم لا؟»

واتجه نحو مكتب كبير وفتح درجاً، ثم عاد إليها وألقى البرقية المطوية على الفراش.

كانت أصابع ميرلين ترتعش وهي تبسط الورقة وتقرأ نص البرقية:

«ممرضتك غير معروفة بهذا الأسم، وقد غيرّته لأسباب واضحة. طولها خمسة أقدام وخمس بوصات. رشيقة القوام، ذات شعر وعينين لونهما بني. لا بد أنها نفس الفتاة. أنصحك بفصلها فوراً.»

وضغطت بأصابعها على البرقية حتى تكرمشت الورقة... كأنها تريد أن تنفي تماماً أنها الفتاة نفسها ولكنها إذا فعلت فلن عليها. أن تضيف أن لجنة المستشفى اتهمتها وأدانتها.

من الأفضل ترك الأمور كما هي، إذ أنها لن تكسب شيئاً من الأعتراف، إلاّ ضياع كل شيء.

وقال بول:

«بدا لي اسم ميرلين ليكسايد أنه اسم خيالي، لعلك أخذته من إحدى مجلات القصص الغرامية... ما هو اسمك الحقيقي؟»

«إنني أدعى ميرلين فقط. ألا نستطيع الاكتفاء بذلك؟»

«كما تشائين».

واتجه إلى باب الغرفة ليفتحه عندما سمع أصوات الأقداح وأدوات المائدة تهتز على الصينية، وتناولها بيده ثم سار بها نحو الفراش قائلاً:

«سنتناول الطعام هنا، إذا لم يكن لديك مانع؟»

«كلا... ولكنني سأحضر شيئاً أرتديه من غرفتي».

«لا يمكنك الخروج هكذا، سأحضر أنا الكيمونو... هل تذكرين أين وضعته في غرفتك؟»

«إنه على الأرض بجوار الفراش... ولكن أحذر السجادة يا بول».

«سأكون حريصاً، ويمكنك أن تصبّي القهوة حتى أعود».

وشق طريقه خارجاً من غرفة نومه بينما كانت ميرلين تحدق في الباب الذي تركه نصف مغلق، وهي تفكر...

كان بول مهيأ لكي يقبل فكرة أنها الممرضة اللعوب، التي كان يلاحظها في المستشفى... وجاءت أوصافها على الورق في برقية هندريك تتطابق أيضاً مع أوصاف ميرلين، ولن يتسنى اثبات الحقيقة إلاّ عن طريق قلب بول، الذي يجب أن يكتشف بنفسه أن ميرلين صادقة مخلصة.

وعاد يحمل الكيمونو الحريري وأمسكه بيده حتى لفّت نفسها فيه... وصبّت ميرلين القهوة ووضعت القدح في يده بعناية، ثم قدمت له طبقاً من البيض والخبز المحمص.

وقال وهما يتناولان طعامهما:

«أعتقد أننا سنذهب إلى الشاطىء اليوم، وبهذه المناسبة سيقوم أحد الخدم بنقل كل أمتعتك إلى هذه الغرفة، وتستخدمين غرفة النوم الأخرى للجلوس والقراءة».

«وماذا ستفعل بشأن كتابك يا بول؟ أستطيع أن أستمر في العمل كسكرتيرة لك».

«أجل، ولكن الوقت لم يحن بعد، أريدك زوجة فقط في الوقت الراهـن... هل تفهمينني؟»

«بلا شك، ولكني لا أريد أن تترك الكتاب الذي كان العمل يسير فيه جيداً».

فقال وهو ينهض:

«إنه لا شيء إذا قورن بما أستطيع أن أعمله»

وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً كحيوان في قفص وهو يقول:

«إنّ الكتاب هو مجرّد علاج لما يؤلمني، أريد أن أعمل ما تدربت عليه يا إلهي... لماذا حرمتني أيتها الشيطانة من كل ذلك لماذا؟ ألأنـني لم أستجب لاغرائك؟»

وتوقف الطعام في حلقها وهي تقول:

«بول! ماذا أستطيع أن أقول يا عزيزي؟»

فصاح قائلاً:

«أولاً... أن تكفّي عن مناداتي بعزيزي، فليس هناك شيء عزيز جداً فيما أشعر به

حيالك».

«أعرف ذلك، ولكن ألا تظنّ أنه كان حادثاً؟»

فقال بحزم:

«لم يكن حادثاً، أنت تعرفين ذلك وأنا أعرفه، فلا تحاولي اخفاء الحقيقة، إنني ذاهب إلى غرفتي لارتداء الثياب، وسأكون جاهزاً للذهاب إلى الشاطىء بعد ساعة . وسيحضر الغلام أشياءك بعد وقت قصير... يا عزيزتي!»

ونطق الكلمة الأخيرة بسخرية بالغة حتى أنها أجفلت وهو يغلق باب غرفة الملابس خلفه.

وهكذا فإنه سيبدو لكل من في الجزيرة أنهما يتمتّعان بشهر العسل كأي زوجين سعيدين... يسبحان معاً، ويستلقيان تحت أشعة الشمس... ويسيران في الغابة وربما جمعا الزهور البرية ذات النسيج الذي يشبه المخمل!

كان من الممكن أن تكون الأيام التي تأتي وتذهب مليئة بالسعادة، لولا أنّ بول كان ينتهز كل فرصة تعرض له لكي يقلل من شأنها، ويقول في سخرية أنه لا حاجة بها لأن تصف له المشاهد الطبيعية وكأنه سائح!

وقد حاولت ميرلين يائسة ألاّ يؤذيها، وناضلت لكي تتقبل المر ممزوجاً بالحلو، وكان في بعض الأحيان يبدو رقيقاً جداً حيالها، ولكن لكي يتحوّل فجأة إلى عدو لدود.

وحتى في لحظاته العاطفية معها، كان يجعلها تشعر بأنها امرأة مشتراة، ولا يكاد يشبع رغبته حتى يدفعها بعيداً عنه، فتنساب دموعها في سكون فوق وسادتها، بدون أن تجرؤ على مسحها حتى لا تهتز الأجراس الصغيرة التي وضعها في أسوارتها، ولعله كان يحس ببكائها الصامت، ولكنه لم يكن يشير إلى ذلك قط.

وبينما كانت الأسابيع تمر، بدا أنه تخلّ عن كل فكرة لاتمام الكتاب، ولم تجرؤ ميرلين على أن تشير إلى ذلك، وأخذت تعتاد حالات مزاجه المختلفة تدريجياً.

كانت تعرف متى يذهب للسباحة في الفجر عندما تكون أسماك القرش في الماء جائعة تبحث عن طعام، فتتبعه حافية القدمين الى الشاطىء، وهي تحذر توتوب بأصبعها حتى لا يكشف عن وجودها لزوجها، وتظلّ ترقبه وهو يسبح وفي يدها المسدس الصغير الذي كان لون قد أعطاه لها، ودربها سراً على استخدامه لحماية بول في البحر.

وكانت تعرف أن بول يفعل ذلك عامداً، فهو لا يهتم إذا التهمته أسماك القرش، ولكنها هي كانت تهتم به... بقلبها وروحها.

و هندريك، الذي لا تحبه ميرلين كثيراً، اعتاد الحضور إلى بيت النمر لتناول القهوة في ساعات الضحى، أو الشراب بعد العشاء، يقف محدقاً فيها وهو مطمئن لأن بول لا يستطيع رؤيته، ولم تكن غافلة عن نظرات الاعجاب الساخرة التي كان يرمق بها جسدها.

ودنا هندريك منها ذات يوم، واقترح أن تتمتّع بصحبته مرّة، مفضّلة إياه على رجل لا يستطيع أن يذكر لها مدى جاذبيتها، وقال لها:

«إنك في حاجة لمن يعجب بك، و بول لا يعرف شيئاً عن الجمال الذي بين يديه».

ورمقته ميرلين بنظرة تفيض كرهاً وقالت:

«إذهب إلى الجحيم، لو أبلغت بول أنك تراودني عن نفسي لحطّم عنقك!»

فقال ساخراً:

«عليه أن يجدني أولاً أليس كذلك؟ إنني أعرف كل شيء عنك، لقد تزوجك بول لأن أي امرأة أخرى لم تكن لتقبله في حالته هذه. الأمر بالنسبة إليه أن كل القطط تبدو سواء في الظلام. ولكن لماذا هذه الأجراس في معصمك؟ هل تعضين وتخدشين عندما يربت أي رجل عليك؟»

فقالت في غضب:

«إذا لم تدعني وشأني فسوف أركلك».

فقال متشوقاً:

«إنني أفضل قبلة. هيا لا تتظاهري بالعفة! لقد فقدت ذلك قبل أن يتصرّف بول كرجل مهذب ويجعلك زوجته. أنك بالنسبة إلى بول مجرد جسم في الظلام ألا تشتاقين لذراعي رجل يستطيع أن يحدّثك عن جمال عينيك وروعة شعرك ونعومة بشرتك؟»

فقالت في احتقار شديد:

«أيها الوحش... إنني أفضل لعنات بول على عناقك».

«وهل يلعنك كثيراً؟ إنه يعرف ما فعلته به».

«أجل... لقد تأكدت أنه لن يكون سعيداً. أتحسد رجلاً أعمى؟»

«إنني أحسده على شيء واحد فقط هو أنت يا فتاتي. هيا لنرى كيف يكون شعورك عندما تعطين نفسك لرجل لا تدينين له بثمن عينيه».

كانت كلمات رهيبة... زادها سوءاً كرهها الشديد لصاحب الكلمات الذي نطقها. ورفعت ميرلين قدمها اليمنى وضربت كاحل هندريك الأيسر بصندلها الخشبي بكل ما تملك من قوة. فأخذ يعوي كالكلب وتركها وهو يقفز في الممر، بينما سارعت ميرلين بالابتعاد عنه.

وراحت تعدو بأنفاس لاهثة حتى بلغت شرفة بيت النمر. وفجأة اضطرت إلى الأمساك بأحد الأعمدة الخشبية، وأحسّت بالأرض تميد تحت قدميها وتملكها احساس بالاغماء. ومضت عدة دقائق قبل أن تبدأ موجات الاغماء في الانحسار. وعندما جاء بول لكي يجلسا معاً تحت أشعة الشمس، كانت قد استعادت هدوءها ورصانتها.

واضطجعت في مقعد خيزراني طويل وهي تحمل كأسها بينما جلس بول على درجات سلم الشرفة يرشف كأسه. وقالت بعد قليل:

«سيكون القمر كبيراً الليلة. إن الشمس تغرب الآن. بينما ينتظر القمر لكي يتصدر السماء».

فقال بول:

«ستكون السباحة في ضوء القمر مغرية».

«أعتقد ذلك، وإذا شئت ذلك فسوف أجعل توتوب يقودك إلى الشاطىء».

«إنني أفضل أن تأخذيني أنت، وأقترح أن نذهب للسباحة معاً في ضوء القمر هل أنت مستعدة؟»

«إنني أحب الذهاب معك، إذا كنت تريدني حقاً».

«وهل كنت أطلب منك ذلك إذا لم أكن أريد صحبتك؟»

«إنني لا أعرف إن كنت في حاجة إليّ... أم إلى كبش الفداء؟»

قال وهو ينهض واقفاً:

«الليلة يا عزيزتي احتاج إلى زوجتي، اذهبي وأحضري ثوب استحمامي وثوبك، ولا تنسي المنشفة وسجادة صغيرة، وسأطلب من الطاهي إعداد بعض الدجاج في سلة مع خبز ساخن.

وهرعت ميرلين إلى الداخل وانطلقت إلى غرفتها لاحضار ثوبي الاستحمام والمناشف، ولم تنس السجادة، وأمسكت أنفاسها... إنه يريد زوجته... يريدها فوق الرمال الفضية، حيث يمتزج القمر وموسيقى البحر في عروقها.

٩ ـ وأضاء الليل قمر

انتظرت ميرلين زوجها خارج المنزل، بينما أشعة القمر تغمر المكان، وتتسلّل بنورها الأبيض من بين سعف النخيل، وأريج زهور الغابة ينفذ إلى أنفها... وسمعت بول يقترب بخطواته القوية الثابتة قائلاً:

«هل أنت هنا؟»

وعندما اقترب من عينيها ورأت وجهه، أحسّت بارتياح عندما شاهدت بسمة خافتة على شفتيه، كان يحمل سلة طعام وقال:

«إنّ معنا كل شيء، هل نذهب الآن؟»

وسارا معاً باتجاه الشاطىء... كان الطريق كثير المنحنيات، وبعضها ينحني عند زوايا غريبة خطرة، وقد أمسكت ميرلين ذراع بول بعناية وهي توجه كل خطوة من خطواته، إنّ حركة واحدة خاطئة يمكن أن تدفع به من هذا العلو وسوف يجرها معه، ولكنها لم تكن تشعر بأي قلق على نفسها، وأحست بارتياح شديد عندما بلغا الشاطىء وأخذا يسيران معاً فوق الرمال.

الليل رائع البهاء... وأمواج البحر تندفع نحو الشاطىء لتغمره بزبدها الأبيض، وبدت أشبه بشرائط فضية على امتداد الرمال والصخور التي غرقت في ضوء القمر الساطع، وبسطا السجادة الصغيرة وسلة الطعام تحت إحدى أشجار الكازورينا... وخلعت ميرلين ثيابها ووضعت حول جسمها السارونج الذي ترتديه فتيات الجزر وأحسّت بنفسها تزداد شباباً، إنها أشبه بزهرة تفتحت بعد زواجها وازدادت نضجاً وجمالاً.

وسمعت بول يسألها:

«هل ترتدين السارونج؟»

«أجل... إنه جميل محلّ بالزهور، هل تريد أن تتحسسه بأصابعك؟»

ولم يرد عليها، ولكنه اقترب منها وراحت أصابعه تتحسس نعومة ثوبها... وبشرتها، وأخيراً أمسك وجهها بين يديه وكأنه يراها وقال:

«إنني أقسم لنفسي أنني أعرفك... ولكنني لا أعرفك حقاً! إنك لغز يا ميرلين ويبدو أنني لا أستطيع سبر غوره... هل نذهب للسباحة؟»

«أجل... إنّ الماء رائع في ضوء القمر».

وأمسكت يده... ثم انطلقا معاً إلى البحر، حيث يلهوان ويسبحان في الماء البارد حتى قطعا شوطاً غير قليل بعيداً عن الشاطىء وسط السكون الشامل الذي يملأ جنبات الليل، وأخيراً قالت:

«أعتقد أننا يجب أن نعود الآن يا بول فقد ابتعدنا كثيراً عن الشاطىء... وهذه الليلة من النوع الذي يغري أسماك القرش بالانطلاق للبحث عن صيد».

«أجل... هيا نعد... اسبحي أمامي، ولن أفقد أثرك لأنني أستطيع أن أسمع الأجراس التي ترن في اسوارتك».

ومضت تسبح بسرعة في طريق العودة، و بول يتابعها بضرباته القوية مسترشداً بصوت أجراسها، وخرجا من الماء، واتجها نحو الشجرة التي وضعا طعامها تحتها، وبعد أن جففا جسميها، أخرجت ميرلين الطعام من السلة... وجلسا يأكلان.

وتمتمت ميرلين قائلة:

«كم أودّ أن يكون هناك تعهد بيننا».

«بماذا؟ بسعادتنا مستقبلاً؟»

قالت متوسلة:

«أليس هناك أي أمل في ذلك؟ ألم أكسب ولو قليلاً من المغفرة؟»

فأشار بيده إلى السماء قائلاً:

«هل يمكنك رؤية القمر هناك؟ وهل باستطاعتك الوصول إليه؟»

«ألم يعد هناك أيّ أمل لي؟»

«سوف أعدك بشيء واحد إذا كنت تريدين وعداً. وهو أنه في اليوم الذي تعيدين فيه بصري الضائع، ومستقبلي كانسان قادر، سوف أغفر لك! ما رأيك في هذه الصفقة؟»

ولم ترد وقالت بعد قليل:

«إنّ الطعام لذيذاً».

«أجل، لنأكل ونشرب اليوم، إذ من يعرف ماذا سيحدث غداً؟»

وبعد قليل قال:

«إنك مستغرقة في تفكير عميق، فيم تفكرين؟»

«ما أجمل هذه الجزيرة، كأنها قطعة من جنة عدن».

«وهل نحن آدم وحواء؟»

«كلا، إننا الآن شمشون و دليلة. أليس كذلك؟»

«أعتقد ذلك، فننتظر أعمدة الهيكل أن تنهار فوقنا. كان شمشون هو الذي أسقط الأعمدة. أليس كذلك؟ هل تعتقدين أنه فعل ذلك لكي يتخلص من دليلة إلى الأبد؟»

«أجل، كان يرغب فيها حتى وهو يحتقرها، مثلما تحتقرني أنت».

«أريد في بعض الأحيان أن أنهي كل شيء بيدي، وفي أحيان أخرى أحسّ أنني لا أستطيع أن أبقى بدونك، لست أدري... لماذا تجعليني أشعر بعناق الفردوس في حين أنك السبب في إلقائي في الجحيم؟»

«بول... لا تكرهني».

«إنني لا أجرؤ على ألاّ أحبك، أي نوع من الفخاخ سوف تنصبينه لي لو سمحت لنفسي أن أنسى من أنت حقاً؟ يا إلهي... يجب أن أنسى ذلك».

وعندما عانقها هذه المرة، لم يكن هناك عنف في حركاته... ولكنها كانت تخشى على شيء آخر، كانت تخاف على الجنين الذي استقر في أحشائها منذ ليلة زفافها، وأرادت أن تصدمه بالنبأ لكي يدرك أنها امرأة وليست مجرد هدف ينفث فيه مشاعره المريرة التي يعتقد أن لها ما يبررها، وقالت:

«إنك تكرهني، ولكنني أحمل الآن طفلك».

ففال بخشونة:

«لو وضعت طفلاً حقاً، فانني لن أجعلك تحتفظين به. أنت لا تصلحين لأن تكوني أماً، سأرسل الطفل إلى وطني في هولندا ليعيش مع جدتي».

«بول... لا يمكن أن تكون بهذه القسوة!»

«لقد تعلمت القسوة من أستاذة في هذا الفن، إنني أتطلّع إلى السعادة التي سأشعر بها وأنا انتزع منك الطفل في اللحظة التي تلدينه فيها! أنت تعرفين أنك في هذه الجزيرة يجب أن تطيعي كل أوامري، ولن تجدي أحداً يساعدك في الاحتفاظ بالطفل، سوف أجعلك تشعرين بما يحدث للمرء عندما يفقد جزءاً من نفسه».

وأطلقت ميرلين صيحة ألم قائلة:

«لن تفعل ذلك، لن تستطيع!»

«هذه هي العدالة يا عزيزتي».

وفاضت عيناها بالدموع... لقد حطّم بكلماته كل أمل في السعادة التي كانت لا تزال تحلم بالحصول عليها في يوم ما، وأكّد بصورة لا تقبل الشك أنه لا يكَن لها في قلبه غير الحقد الأعمى والكراهية التي لا نهاية لها.

• وقفزت ميرلين على قدميها وانطلقت تعدو نحو البحر يدفعها شعور التعاسة الذي غمر قلبها... هناك في البحر سوف تدفن آلامها، ويأسها من اقناع بول باخلاصها، ولكن حواسه كانت متيقظة تماماً حتى أنه حدّس ما كان يدور في ذهنها فمدّ يده وأمسك بكاحلها فسقطت على الرمال منبطحة على وجهها، وأحست بذراعها اليمنى تصطدم بصدفة لسرطان بحرى ذات أطراف حادة مدببة مزقت

لحمها.

وسمع بول صرختها، فسألها:

«ماذا حدث؟»

«لقد أصيبت ذراعي بقطع من صدفة حادة».

«يجب تنظيف الجرح بسرعة حتى لا يتسمم دمك».

«أرجو أن يحدث ذلك، فربما مت وبذلك تتخلّص مني بدون أي أزعاج».

فصرخ قائلاً:

«لا تتحدثي كطفلة. هل القطع عميق؟»

«نوعاً ما...»

ومد يده يبحث عنها، قائلاً:

«هل أصبت بالاغماء؟»

ولكنها ابتعدت عن يده وهي تقول:

«إنني فاجرة، حاقدة يا بول، وقد شاهدت دماء من قبل حتى بهذه الكمية».

«إن الجرح ينزف بغزارة».

«وماذا يهم؟»

فزمجر قائلاً:

«أعطني ذراعك فوراً... وكفى ثرثرة».

«إنني على ما يرام، فلا تقلق نفسك من أجل مجرد لعبة».

«أين ذراعك؟»

وأمسك بها فجأة... وتحسس بأصابعه حتى عثر على الجرح، ثم رفع ذراعها إلى فمه وبدأ يمتص الدماء من الجرح، ويبصقها على الرمال وقال:

«إنك معرضة للاصابة بالتلوث، ولن أستطيع في حالتي هذه أن أجري عملية بتر لهذه الذراع النحيلة الرقيقة، والآن هل معك شيء لربط هذا الجرح؟»

«إنّ منديلي في حالة سيئة».

«خذي منديلي إذن».

وأخرج منديله من جيبه وقال لها:

«لا بد أنك تعرفين كيفية عمل ضمادة محكمة لوقف بعض هذا النزيف».

وأطاعته ميرلين في سكون، وبينما كانت تربط الضمادة، راحت تنظر إلى وجهه، كان مظهره معقداً بصورة لا تصدق، فهو في لحظة يكون مفترساً يقول لها إنها لا تصلح أماً لطفلة، وفي اللحظة التالية يستبدّ به القلق عليها إلى حد أنه يستخدم فمه لاخراج أي تلوث يكون قد أصاب دمها.

وتمتمت قائلة:

«شكراً لك».

«هل كنت تريدين أن تفقدي إحدى ذراعيك؟»

«أعتقد أنني كنت أفضل ذلك على أن أفقد طفلي بالطريقة التي ذكرتها، لقد قلت لي إنني أستحق أن أفقد جزءاً من نفسي!»

فقطب جبينه وهو يتحسّس الضمادة على ذراعها، وقال:

«وهل تعتبرين طفلي جزءاً منك؟ يبدو أنّ لديك رصيداً من الكلام الحلو الذي يستهدف نزع سلاح أي رجل».

«وهل نزعت سلاحك يا بول؟»

ولكنه تجاهل سؤالها وقال:

«إنني أسف عما حدث، فخطأي هو سبب سقوطك... ولكنني أحسست أنك كنت على وشك الاندفاع نحو موجة المد العالية، وهناك صخور على طول الشاطىء كما أن الأمواج يبدو من صوتها أنها قوية بحيث يمكن أن تحطمك على الصخور».

«وهل يهمك هذا يا بول؟ هل يجعلك تشعر ببعض الحزن؟»

«أجل ... هناك احتمال قوي بأنني سوف افتقدك.فأنا لست سوى رجل.ولم انتزعك بعد من عروقي، كم مضى من الوقت ونحن معاً؟ لقد فقدت أنا احساسي بمرور

الأيام؟»

«هل تعني منذ أن جئت إلى الجزيرة؟»

«كلا... بل أعني منذ أصبحنا رجلاً وعشيقته؟»

وأجفلت لدى سماع الكلمة، وقالت:

«عشيقة يا بول؟»

«أجل... إنك تعرفين ماذا يربط بيننا، كم مضى منذ ليلة الحفل الراقص في الهيكل؟»

«اثنا عشر أسبوعاً تقريباً.»

ولم يقل شيئاً، ولكنها أمسكت أنفاسها وهي تحس بيده تضغط عل خصرها، وأدركت أنه كشف الانتفاخ الطفيف في بطنها، وعندئذ دارت بخلدها تلك التهديدات التي قالها بشأن الجنين. إنها تحب بول حباً يفوق كل الوصف، ولكنها لن تسمح له بحرمانها من طفلها. وسألته بهدوء:

«بول... أي نوع من النساء يمكن أن تهتم به حقاً؟»

فقال على الفور:

«المرأة التي يمكنني أن أثق فيها، المرأة التي يكون قلبها عزيزاً عليّ مثل جسمها».

«ولكنك في حالتي لا تهتم إلاّ... بجسمي؟»

«أجل».

وفجأة اقترب منها وعانقها ثم قال:

«إن بشرتك باردة، لقد تأخر الوقت ولا بد من العودة للبيت».

وأحسّت ميرلين برغبة عجيبة في أن ترد له ما يعتقد أنها سلبته منه... فطوقته بذراعها فلم يقاوم عاطفتها، بل أدار رأسه نحوها... وتركها تقبل عينيه!

وهمست تقول:

«لم أقصد إيذاءك يا حبيبي، إنني أعطيك عيني إذا أمكن نقل القرنيتين إلى عينيك؟ هل يمكن ذلك؟»

فوقف ساكناً بلا حراك أمامها، وقال:
«كلا، هيا... يجب أن نغادر الشاطىء قبل أن أبدأ في تصديق كذباتك الحلوة».
«ليست كذبات يا بول».
«لا بد إذن أن ضميرك يزعجك».
«أرجوك... لا تقل ذلك».
«إنني أفعل ما أشاء، حتى أصل إلى المتعة الأخيرة بالتخلّص منك...»
وراحا يسيران ببطء في الطريق الصخري في طريق العودة إلى البيت.
في الأيام والأسابيع التي تلت طرأ تغير كبير على بول، فلم يعد يؤذيها بكلماتِه القاسية، وكانت ميرلين مقتنعة بأنه يعرف حقيقة حملها ولكنه لم يتحدث عن ذلك قط، كما أنها لم تجرؤ على الحديث عنه، وفي أمسيات عديدة في الشرفة، تاقت الركوع بجوار بول لتهمس قائلة إنها فخورة بحمل طفله بين احشائها، ولكنها كانت تخشى أن ينفّذ تهديده لها.
وكان هو يعرف هذه الحقيقة، ولاحظت كيف أصبح يعاملها برقة ورعاية، وإن ظلّ يكتم مشاعره في أعماقه، وذات ليلة تجاسرت على أن تذكر كتابه وتقترح أن يواصلا العمل فيه، ولكنه قال:
«كلا».
وانحنى على البيانو الذي كانت تعزف عليه برقة في ضوء الشموع، ومضى يقول:
«لا أريد أن تجلسي أمام الآلة الكاتبة ساعات بلا نهاية، تستمعين إلى تلك المصطلحات الطبية التي أمليها عليك، إنك لم تعودي سكرتيرتي. أليس كذلك؟»
«أتعني أنني عشيقتك؟»
«بل زوجة رجل أعمى».
وسار نحو الباب الزجاجي المؤدي إلى الحديقة حيث سار بخطواته الواثقة التي

توحي لمن يراه أنه يرى ما أمامه، وظلت هي جالسة على مقعدها أمام البيانو حتى اختفى صوت أقدامه، وكانت تعرف أنه سيسير وسط الغابة في ظلام الليل، غير عابىء بما قد يكون هناك من أخطار بين أشجارها... ولكي تبدد خوفها عليه وهو هناك، راحت تعزف لنفسها أغنية عاطفية قديمة تقول: احلمي عندما تشعرين بالكآبة، احلمي فقد يتحوّل الحلم إلى حقيقة!

ونهضت بعد قليل، وانطلقت إلى الحديقة، كان القمر بدراً والهواء مشبعاً بالرائحة المنبعثة من أشجار الشاي، وأريج الزهور البرية، وراحت تسير تحت أغصان الأشجار الكثيفة.

كانت تريد أن تكون مع بول، فقد استبدّ بها الخوف عندما رأت ما كان يبدو على وجهه من مظاهر الأسف المشبع بالألم، والذي جعله ينطلق في الليل وكأنه لا يبالي بما قد يحدث له! وأخذت تسرع في سيرها غير عابئة بالأشواك التي كانت تشتبك بثوبها الحريري وكأنها أسلاك شائكة، فتمزقه وتصيب يديها بخدوش. وتناهت إليها أصوات غريبة تنبعث من أماكن خفية وسط الغابة، فتوقفت لحظة وراح قلبها يدقّ بصوت عال، وتمنّت لو أنها لم تطاوع نفسها وتتبع بول فهو برغم فقد بصره، يعرف طريقه في هذه الاحراش خيراً منها... وبعد تردّد قصير، قررت أن تقفل عائدة إلى البيت.

وفي تلك اللحظة بدأ الكابوس الذي هز أعصابها بعنف، فقد سمعت صوت شخص يشق طريقه وسط الأشجار على أحد جانبي الطريق، وفجأة شاهدت شبحاً يظهر أمامها وهو يحمل سكيناً طويلة كالسيف... ووقفت ميرلين في ذهول تنظر إلى النصل الرهيب وهو يلمع في ضوء القمر، وتضاعف فزعها عندما رأته يرفع سكينه عالياً وبرقت عيناه كالمجنون وسط وجهه الأسمر، وأخذ يتجه نحوها وقد بدا الشر في نظراته.

كان رجلاً من أبناء الجزيرة أصابته لوثة، وبدا أنه لا مهرب لها منه وهو يشب عليها، فأطلقت صيحة رعب مدوية، وفي نفس اللحظة أحست بيد تدفعها بقوة

نحو أحد جانبي الطريق في الوقت الذي هوى فيه نصل السكين الكبيرة على ذراع شخص يرتدي حلة بيضاء!

إنه بول... وقد حلّ مكانها في طريق الرجل المخبول. وتلقّي ضربة السكين على ذراعه التي دفعها بها بعيداً عن الطريق.

كيف حدث ذلك... وكيف جاء؟ إنه كالكابوس. حتى سمعت ميرلين أصوات أشخاص يهرعون إلى المكان. ورأت السكين ملقاة على الأرض. وبعض أهالي القرية يلقون شبكة صيد على الرجل المجنون. فأسرعت تعدو نحو بول الذي كان يمسك ذراعه الجريحة بيده الأخرى والدم ينبثق منها كالنافورة على السترة البيضاء التي كان يرتديها!

ورأت لون، الذي كان قد حذر بول من أنّ أحد أبناء القرية أصيب بلوثة جنون وهو يحمل سكيناً حادة من التي يقطعون بها قصب السكر. وتبيّن أنها خرجت من المنزل فراحا يبحثان عنها حتى سمع بول صوت صرختها فاندفع نحوها لانقاذها.

واشتركت هي و لون في مساعدة بول على السير إلى المنزل، وهناك استخدمت ميرلين كل ما لديها من مهارة في فن التمريض لتوقف نزيف الدم المخيف من ذراع زوجها.

وتمتم بول قائلاً:

«هل أنت على ما يرام؟»

«إنني بخير يا عزيزي».

وأزاحت خصلة الشعر المبللة عن جبينه، وعرفت من تقلصات وجهه مدى الألم الذي يشعر به. وسألت لون إذا كان هناك أي كمية من المورفين في الجزيرة، فانطلق مسرعاً إلى الصيدلية الموجودة في القرية ليبحث عما يمكن أن يخفف بعض الصدمة والألم عن بول.

كانت ميرلين تعرف أنّ الجرح خطير، وعندما أقبل هندريك مسرعاً بعد

أن أيقظوه من نومه، أبلغته أنه يجب نقل بول إلى أقرب مستشفى للعلاج.

وحدّق هندريك في ابن عمه، ثم استدار ليصب لنفسه كأساً من الشراب وقال:

«يا إلهي، إنّ النزيف شديد من ذراعه».

كانت ثياب بول قد تلوّثت بالدم، وترنحت ميرلين قليلاً، ولكنها تمالكت نفسها، فهي بحاجة إلى كل عصب في جسمها لمساعدة بول الذي أنقذ حياتها. لم يكن هناك أي مورفين في الجزيرة، ولكن لون عاد بشيء آخر من أحد كهنة الهيكل قال إنه يخفف أسوأ الآلام، كان سائلاً أبيض اللون، ويبدو أنه عقار مستحضر من بعض النباتات أو الجذور، ولكن ميرلين لم تتردّد في أن تعطي بول جرعة من هذا السائل، ولم تمر بضع ثوان حتى أحسّ بالنعاس، وتمتم قائلاً:

«أفيون! شكراً لله أنك لم تفقدي توازنك».

فقالت:

«إن لون يعدّ الهليكوبتر، وسيهبط بها قرب المنزل. أعرف أنها محاولة خطيرة ولكنه يريد القيام بها، أنه يحبك وكلنا نحبك وسننقلك فوراً إلى المستشفى، ولن أتركك تفقد ذراعك الثمينة... أعدك بذلك يا بول!»

كان وجهه الموضوع على وسائد الأريكة أشبه بقناع من الظلال، وقد أغلق عينيه عدّة مرات، وكأنه يقاوم الدموع، فانحنت ميرلين على وجهه قائلة:

«أنت شجاع جداً يا حبيبي... فتشجّع فترة أخرى».

«يا ذات الوجه الملائكي».

وتمايلت رأسه على الوسادة، ثم أغلق عينيه بشدة.

واستغرق في النوم فترة قصيرة، جعلت ميرلين تحس ببعض الارتياح، وقبلت كوباً من الحليب قدّمه لها أحد خدم البيت، بينما أحضر لها آخر عباءة من غرفتها حتى تلفها حول جسمها عندما تطير مع بول إلى المستشفى.

كان هندريك يميل في مقعده إلى الأمام وهو يحدق في أرض الغرفة، ثم تمتم قائلاً:

«إنك تحبينه حباً جماً، أليس كذلك؟ إنّ فتاتي سرينا تعتقد أنك حامل، فهل هذا حقيقي؟»

وترددت ميرلين، ثم أحنت رأسها.

«وماذا تظنين أنه سيفعل بشأن ذلك عندما تخبريه؟ أراهن أنك لم تخبريه؟»

فقالت في لهجة دفاعية:

«كنت أنتظر اللحظة المناسبة، كما تفعل أغلب النساء».

وفجأة قال هندريك:

«لقد كذبت عليه بشأنك، كدت أموت حسداً عندما جئت إلى هنا وشاهدت الفتاة التي حصل عليها لنفسه، برغم أنه لم يكن في استطاعته أن يرى أي جزء منك، وذات مساء طلب مني ونحن في غرفته أن أصفك له، وكان لدي انطباع بأنه يعتقد أنك الممرضة الأخرى المشتركة في حكايته، فوصفتها له كما رأيت صورتها في احدى الصحف، وقلت إنها من النوع الذي يسعى لاصطياد جراح شهير، وقال بول عندئذ إنه أعمى ولم يعد صيداً مغرياً لأحد، ولكنني قلت له إنهلايزال بول فان سيتان وشهرته كجراح لم يصبها شيء، ولا يزال صيداً طيباً لفتاة تريد أن تكون من فتيات المجتمع، وفي إيجاز جعلته يعتقد أنك من النوع المتسلّق وأنك تتمتعين ببعض الجاذبية، وأستطيع أن أقول إنه لم يحب هذه الصورة.»

وقطّب هندريك جبينه، وأخذ يتفحّص ابن عمه النائم وقد علّق ذراعه المربوط بالضمادة، ولطخ الدم ثيابه، وابتلع ريقه بصوت مسموع قائلاً:

«كنت أحسد بول دائماً، فهو يتمتّع بالذكاء واللمعان، وحتى عندما حصل على فتاة فاز بك أنت، لقد قالوا في الصحيفة إنّ فتاة تدعى جين بريدجز وجدت مسؤولة عن تلف عيني بول، فهل أنت جين بريدجز؟»

قالت بهدوء:

«أجل، في تلك الأيام، كان بريدجز هو اسم زوج أمي وقد استخدمته لكي أرضي أمي، و جين هو اسمي الثاني، وقد اعتقدت أنه أنسب لي من ميرلين».

«أنسب لك؟ إنني لم أر وجهاً أحلى من وجهك طوال حياتي. والآن هل سيكون بول على ما يرام؟»

«يجب أن يكون كذلك، إذا كانت هناك أية عدالة؟»

وبدت ملامح الألم على وجهها وامتلأت عيناها بالدموع وهي تقول:

«كان من الممكن أن تمضي حياتي أنا و بول بنجاح لو لم تكذب عليه، أرجو أن تدفع ثمن ذلك».

فزمجر هندريك قائلاً:

«سأفعل، فلن يسعدني الحظ طوال حياتي بلقاء شخص مثلك... أنك فتاة رائعة حقاً يا ميرلين، وحتى إذا كان بول قد فقد بصره، فإنه حصل على أفضل شيء، حصل عليك أنت، وعلى طفل منك».

وسمعا هدير مروحة الهيليكوبتر قادماً من الشاطىء إلى ساحة المنزل، وأحسّت ميرلين بأعصابها تزداد توتراً، كان لون يخاطر بحياته وهو يحاول الهبوط في مساحة محدودة في ضوء القمر، ولكنهم لن يستطيعوا إنزال بـول على هذه الدرجات الصخرية حتى الشاطىء بعد أن نزف قدراً كبيراً من الدم.

ونهض هندريك وحدّق بعينيه الجاحظتين في وجه ميرلين الذي يغمره القلق، وقال:

«أخبريني الآن... هل كنت مسؤولة عن العمى الذي أصاب بول؟»

فهزّت رأسها وقالت بهدوء:

«ألا يمكنك أن تحدّس من هو المسؤول؟»

«أهي الممرضة الأخرى؟ وهل يعرف بول؟»

«إنه يشك في ذلك».

«وقد جعلته أنا يعتقد أنك المسؤولة!»

«أجل يا هندريك».

«يا إلهي، لا بد أنك تتمنين أن أموت عند قدميه»

«سوف يرضيني ذلك إلى حد ما. ولكن الأشخاص القساة هم أسوأ عدو لأنفسهم».

وتنفس هندريك بصعوبة، ثم صبّ لنفسه كأساً أخرى. ولكن ميرلين لم تعد تهتم به، بل انحنت على بول وأخذت تفحص نبضاته بعناية فوجدتها تزداد قفزاً، وأحسّت ببرودة بشرته التي يتصبب منها العرق، ومسحت وجهه، وأرهفت أذنيها لصوت الطائرة حتى استقرت على الأرض.

وحملوا بول بعناية بالغة، وحلّقت الطائرة نحو السماء التي يغمرها ضوء القمر، واتجهت فوق مياه المحيط التي تلمع تحت الضوء الفضي، وبرغم أن بول استيقظ من غفوته مرة أو مرتين خلال الرحلة، فإنه ظل أغلب الوقت نائماً على كتف ميرلين.

ولاحت أخيراً أضواء الميناء، وقال لون:

«ستكون سيارة الاسعاف في انتظارنا، فقد طلبتها باللاسلكي. إنّ الأطباء هناك ممتازون، وسيبذلون ما في وسعهم من أجله. إنّ النمر لا يموت بسهولة يا سيدتي!»

فصمتت قائلة:

«إنّه أعز النمور عندي، ولو مات فسأموت أنا أيضاً. إن زجاجة الأفيون في حقيبتي وبهاكسية كافية».

فقال لون في لهجة جادة:

«إنك تحملين طفلاً في أحشائك، وهو ابن السيد ويجب أن يعيش».

وما كادت الطائرة تهبط ومروحتها تتوقف عن الحركة، حتى كانت سيارة الاسعاف تقف إلى جوارها، وفي تلك اللحظة فتح بول عينيه وبدا كأنه ينظر إليها مباشرة فسألته برقة:

«هل تشعر بألم يا حبيبي؟»

قال:

«إنه ألم محتمل»

ونقل رجال الاسعاف بول إلى السيارة، وسمعت الطبيب المصاحب لهم يقول لها:

«سيدة فان سيتان، إن زوجك يطلب حضورك معنا إلى المستشفى».

فأسرعت بركوب السيارة قائلة:

«إنني قادمة»

وانطلقت السيارة بأقصى سرعة نحو المستشفى.

ظلت ميرلين تبتهل إلى الله أن تحدث معجزة تنقذ ذراع بول. ولكن في صباح اليوم التالي بدا أن المعجزة لن تقع، وأنه لا سبيل إلى انقاذ الذراع من تحت المرفق.

وأطلقت ميرلين صرخة حزن عالية وغطت عينيها عندما أبلغوها بذلك. وعندئذ جلس الجراح الذي أجرى العملية لبول بجوارها وأنزل يديها عن وجهها الشاحب، وقال:

«هل تودين يا سيدتي أن أذكر ما سيكون لدى زوجك بدلاً من ذراعه المفقودة؟»

ونظر إليها وهو يبتسم في هدوء قائلاً:

«إنه شيء يثير أعظم قدر من الدهشة. فقد كنا على إتصال بأطباء العيون الذين عالجوه في انكلترا يوم أصيب في عينيه. هل كنت تعلمين أنه لم يحدث أي تلف لعينيه ذاتها، وأن العمى كان سببه صدمة شديدة جعلت الأعصاب البصرية تتجمد وترفض أداء وظيفتها؟ أتفهمين ما أقوله يا سيدتي؟ إن زوجك لم يعد أعمى ما حدث له ليلة أمس كان بمثابة تحرر من الصدمة بالنسبة إليه، وبدأ يرى مرة أخرى، ولكن ليس بوضوح تام، لأن ذلك سيستغرق بعض الوقت. ولكنه استطاع أن يرى أنوار غرفة الجراحة، وقال لي إنه رأى وجهك بضع لحظات في سيارة الاسعاف وهي قادمة إلى هنا!

ومدّ الجراح يده ليصافح يد ميرلين المرتعشة وهو يقول:

«سيدتي، يجب أن تصدقي ما أقوله لك ولا تنظري إلي بهذا الذهول الرهيب، لقد استعاد السيد فان سيتان بصره، وهو يزداد وضوحاً كل يوم، لقد فقد ذراعه الأيسر، ولكنه حصل على ما هو أثمن كثيراً من ذلك، فهو يستطيع أن يرى مرة أخرى».

«كان شيئاً لا يمكن تصديقه!»

لقد ظلّت ميرلين تبكي بدموع غزيرة أكثر من ساعة قبل أن تتوقف عن البكاء شكراً لله، ثم وضعوها على سرير المستشفى، حيث راحت في نوم عميق استمر أربعاً وعشرين ساعة.

وكان لون هو الذي عاد إليها بثياب جديدة اشتراها لها من المدينة بدلاً من ثيابها التي تمزقت خلال تلك الليلة في الغابة، وقالت وهي ترتعش:

«إنني خائفة يا لون، ماذا سيقول بول لي، سوف أبدو كانسانة غريبة بالنسبة إليه؟»

«بل سيراك إنسانة ذات مظهر جميل جداً».

وأمسك يديها وقبّلهما، وأخذ يرقبها وهي تسير بمفردها إلى الغرفة التي يجلس فيها بول في فراشه.

وظلّ كل منهما ينظر إلى الآخر في صمت لحظات طوالاً، ثم مدّ يده إليها فذهبت إليه وهي تشعر برعشة تسري في كل بدنها بينما أطبقت أصابعه على أصابعها وقال:

«لقد أبلغوني أن زوجتي قادمة لتراني، هل أعرفك؟ من أنت؟»

فرفعت يده إلى وجهها قائلة:

«أنا؟ أغلق عينيك وتحسسني».

وأغمض عينيه، وأخذت أصابعه تمر فوق ملامح وجهها، حتى عنقها ثم قال:

«الآن يبدو أنني تذكرت تلك المخلوقة الجميلة التي دخلت غرفة مرضي وأعطتني

مثل تلك الصدمة!»

وفتح عينيه الرماديتين ببطء، وابتسم لها ببطء، بينما راحت عيناه تطوفان بوجهها، ثم بقوامها، وقال:

«لقد أخبرتني حواسي أنك بهذه الصورة، ولكنني كنت أضع على وجهك قناع شخص آخر، أليس كذلك؟»

«أجل يا بول، ولكن ألا نستطيع أن ننسى؟»

«كلا، بل يجب أن نتحدث... أسأت إليك أكثر من مرة وأنا أعمى، ولست أدري كيف أعوّضك عن ذلك».

فضغطت يده على وجنتها قائلة:

«يا حبيبي... لقد نلت ما يعوضني ألف مرة، فأنت تستطيع أن ترى مرة أخرى، وقد أنقذت حياتي، وإذا كنت تريدني، فماذا أستطيع أن أطلب أكثر من ذلك؟»

«أن أمنحك أكبر قدر من السعادة، وهو ما أنوي أن أفعله بمجرد خروجي من هذا المكان، ولكنه شيء لا يصدق، أن أرى وجهك الجميل كحلم بعيد يتحقق، أنت التي قالوا إنك أذيتني، ولكن كل شيء أصبح الآن أكثر وضوحاً، فأنت لم تؤذني قط، كانت تلك المخلوقة الأخرى، لماذا لم تحاولي أن تقولي من أنت؟»

فقالت وهي تبتسم:

«وهل كنت ستصدقني؟ لقد كنت بحاجة لشخص تصبّ عليه جام غضبك وكنت تقبلني دائماً بعد ذلك، وكنت أفهم، وأحببتك إلى حد يكفي للتحمل... حتى لو قتلتني يا بول».

«إلى هذا الحد؟»

«كنت مستعدة لكل شيء، إلى الجنة أو الجحيم».

«لقد انتهى الجحيم يا طفلتي الحلوة، ومنذ الآن فصاعداً سنكون في الجنة دائماً، إنني أعدك...ألا تقبلينني؟»

وانحنت ميرلين وضمته إلى قلبها، ورأته يغلق عينيه، وعرفت أنه يتذكّر

تفاصيل حياتهما معاً في الجزيرة، وقال وهو يلهث:
«هل سلّطت سحرك علي منحتني الحب، ومنحتني بصري... وسرعان ما سيكون لي ابن أو ابنة، كيف أشكرك يا حبيبتي؟»
«إن حب انسان ما يا بول يعني ألاّ تقول له قط شكراً بالكلمات، يكفي أن تظهر لي أنك تحبني وسأكون سعيدة جداً».
وكان بول هناك ليرى نوعاً آخر من المعجزات، عندما جلدت ابنته الجميلة ذات الشعر البني إلى الدنيا، ولكنه ظلّ بضعة أيام بعد ولادتها يبدو متوتر الأعصاب وفي عينيه ظل قلق، ظل لم يختف حتى فتحت الطفلة عينيها... وكانت عينان كبيرتين بلون بنّي مشرّب بالذهب، كعيني ميرلين.
وابتسم لزوجته قائلاً:
«سوف نطلق عليها اسم انداه ومعناه الجميلة، انداه تيمناً باسم جزيرة كان فيها نمر روضته يد أجمل النساء الساحرات».
فسألته ميرلين وهي تبتسم:
«وهل أصبحت مستأنساً تماماً يا نمري؟»
«ليس عندما تبتسمين لي...»
«بول... يا أعز الناس... سوف أنطق اسمك طالما هناك نفس في صدري».
«حمداً لله على كل ما أعطاني».